

حميد الرقيمي

روايات
الظل
المنسي



حميد الرقيمي

الظل المنسي

دار نشر
عناوين
BOOKS
رؤية غصرتة للنشر



www.anaweenbooks.org

anaweenbooks@gmail.com



يمنع طباعة أو تصوير هذه المطبوعة أو أجزاء منها، أو حفظها أو نسخها على الوسائط الإلكترونية من غير موافقة مسبقة من المؤلف.

العنوان: الظل المنسي

المؤلف: حميد الرقيمي

المقاس: ١٤ × ٢٠ سم

عدد الصفحات: ١٠٠ ص

الطبعة الأولى: ٢٠٢٢

© حقوق الطبع محفوظة

عناوين Books

رقم الإيداع بالهيئة العامة للكتاب _ حضرموت:

٢٠٢٢/...

لأني دخلتُ السجن شهراً، وليلاً
خرجتُ، ولكن أصبح السجن داخلي

ومن يطلق السجن الذي صرتُ سجنه؟
ومن يطرح العبء الذي صار كاهلي؟

عبدالله البردوني

الإهداء..

إلى المعيّين في ظلمات السجون،
الذين تحني ظهورهم السيّاط ولا أحد يحنو عليهم:
هناك قلوبٌ تنبضُ بانتظاركم، وهناك فجرٌ قادمٌ لا
تأسوا من بزوغه.

الفصل الأول

في صباح غائم خرجت من النزل مرتدياً معطفاً ثقيلاً، لم يكن ملائماً للحالة الطبيعية التي تعيشها المدينة، وهذا الأمر تحديداً جعلني مطارداً بالنظرات المستريبة وهي تتأملني من جهات مختلفة، تراقب خطواتي الثقيلة في شوارع كل ما فيها يوحي بالبؤس التاريخي الذي مازال رابضاً على أهلها. مشيت دون مبالاة، دون تخبط، دون تعثر، أسبق أشعة الشمس التي تلدغ كل مفاصل جسدي، وأحسها غارقة في أعماق جمجمتي، لم أكن أعلم وجهتي في هذه الحالة القلقة، ولم أكن بتلك المعرفة التي تستدعي تفكيراً طويلاً يمنحني بعض الخطوط العريضة التي يجب عليّ اتباعها في مدينة تحملني لأول مرة. لقد كان الوضع العام مخيفاً، يستدعي إنسانيتك مهما كانت بعيدة عنك، ورغم هذا كنت أشعر بأن ملامحي التي لا تبدو مختلفة عن من يصادفني تشغلهم كثيراً. كانوا يتحدثون عن معظفي الذي أتسربل به بتساؤلات عفوية أمسكتها مرات عدة في همساتهم المتبادلة. ضجيج يأكل بعضه، الكل يدور في البقعة التي

تحمله، النساء يحملن أثقالاً لا يمكن للغريب المستجد أن يعرفها، يجهدن أنفسهن في إعداد بضائع معلبة بطريقة عشوائية، حولهن الأطفال بعيون غارقة في بؤس مبهم، ومع هذا تترامى ضحكاتهم بين الحين والآخر، كبار السن في دوائر مغلقة بين واقف على قدميه ومقرفص تبتُّ تجاعيد وجهه ضحكاً نابعاً من أحاديث مطروحة على مائدة عُمر جميل، يجلسون حولها بأنس مفرط. مررت جوارهم دون التفاتة، وقبل أن يأخذني زقاق آخر سألتني واحد منهم: إلى أين يا صديقي؟ لم أكن متيقناً بأني المعني لولا الصوت الذي لحق سؤال صديقه الآخر: «دع المعطف يسترح». توقفت على نغم صاحب من الضحك جعلني التفت إليهم مشدوداً من كمية اللطافة التي كست السوق في دائرة صغيرة تقيم عليها حيوات مليئة بالتجارب ومعجونة بهذا الجمال الفريد الذي لم يصدأ في مدينة كل ما فيها يدعوك للبؤس ويسجنك في عجز مؤرق ومتعب. مرحباً، قلت وكل شيء في هذه السنوات المفروشة في أعينهم يتلبسني: «تعال، تفضل.. يبدو بأنك زائر محترم»، لم يكن عليّ تفويت هذه الفرصة، عدت إليهم، وقف الجميع يصفحني بحرارة عجيبة: «المعطف يشكو منك، هيا

ارحمه يا أستاذ»، «يبدو معلم كيمياء هذا الزائر الطيب»، «تذكرني يا ابني بأيامي التي لم تكن تخلو من أية ماركة تنزل السوق»، «تفضل تفضل». كانت الضحكات تمسك بعضها في أعينهم، وكنت في دهشتي أداري زمناً رمادياً يتقافز في أعماقي خوفاً من أن يفسد هذه اللمة اللطيفة: «أنا جديد على هذه المدينة، كان عليّ أن أزورها بعد أن تعرفت عليها صدفة في مواقع الإنترنت». يرد الشايب الذي يقف جوارى ضاحكاً بطريقته التي لمحتة عليها أول مرة: «الإنترنت يفقدكم عقولكم يا ولدي، لقد أغواك وجعلك تزور هذه الكومة البائسة المنفصلة عن العالم». اكتفيت بالصمت وأنا أهز رأسي. كانت الأحاديث تتأرجح بين نقيض وآخر، تأخذ أشكالها بسلاسة، يتقن كل واحد منهم فصله الذي عاش فيه، وكان هناك شخص لم أسمع طوال الجلسة، يجلس منزوياً على نفسه رافضاً كل استدعاء يشركه في هذا الصخب، وأنا أجول بين هذا وذاك مفتشاً معهم عن ذلك الزمن الذي يدعي كل واحد منهم عظمتهم وكبرياء حضوره: القصص القديمة، المواقف التي جمعتهم، والأخرى التي عاشها كل واحد على حدة، وبين الحين والآخر يطلق الجميع ضحكة واحدة متبوعة

بنظرات تحتويني، ضحكة مليئة بدموع باسمة تنساب من أهدابهم. وحده ذلك الغارق في ذاته، يختلس النظر إليّ بين لحظة وأخرى، يراقب حديثي باهتمام بالغ، تأتيني الأسئلة؛ فيأتي صدى الشباب الذي لم يكن معي قبل جلوسي: «تزوجت يا ولدي، درست يا ولدي، أيش وظيفتك يا ولدي، ما الذي تعمله هنا يا ولدي، ما الذي تحتاجه يا ولدي»؟ وبعد كل إجابة يلتقط أحدهم حادثة من شريطه ويجسد اللحظة بحركات بريئة بيضاء.

مضت نصف ساعة وأنا لم أتحرك من مكاني، طلب مني أحدهم أن أخلع المعطف حتى لا يتعب خطوات الشمس الحارقة، استجبت لهذا التعبير المجازي، وبينما أنا أخلعه قفزت من أحد جيوبه صورة قديمة أحملها منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، وقعت وسط الدائرة: شاب عشريني، يرتدي معطفاً أسود، ملامحه توحى بأنه أكاديمي متفوق، شعره المرتب، نظرتُه الهادئة، بسمته الرزينة التي لا تلائم ملامحه الشابة. رانَ صمْتُ بعد ضجيج سقوطها، كأن صاعقة وقعت في المنتصف، تبدلت الملامح، اشتراخت الضحكات، توارت الأصوات المليئة بالحياة، تجعدت

الحكايات الراقصة، وتحجّرت في الأعين تلك الدموع
الباسمة، بينما كنت أرتب المعطف وجدتها على الأرض ولم
ألحظ كل هذا التغيّر الذي حسبته فاصلاً يوليني اهتماماً
كريمًا، تحركت من مكاني لالتقاط الصورة التي وجدتها فرصة
للحديث عنها، وقبل أن انتشلها من مكانها الذي تحول
إلى قبلة أعينهم، انفجر صوت واحد بأيادٍ تشير إلى ذلك
الصامت المنزوي على نفسه: «هذا أنت يا مصطفى»؛
فأغمي عليه.

الفصل الثاني

أقف على رأس مصطفى في غرفة مكتظة بالمرضى، لم أتعرف بعد على مرضه، ولم يخرج من صمته الذي يخنقه منذ الخميس الماضي، يأتيه الزوار من كل مكان، وكل واحد يحدثني عنه بخير وفير، أشكرهم جميعاً وأعود إلى مقعدي بموازة الوجه الغائر في تقاسيمه المتجعدة، تارة ينظر إليّ، وأخرى يتأمل سقف الغرفة دون أي صوت، أتابع تنفسه المنهك أرى في تقاسيمه أزمنة مفقودة كان عليها أن تستريح قليلاً من تصدعاتها الكثيرة. أشرد دون أية حركة، يوقظني أنين يتصاعد من السرير المجاور، أتفقدته دون أن أعرف هويته، أعود إلى مكاني ومصطفى في حالته السابقة، أرتعش، فأخرج إلى باحة المشفى الذي يلفه سكون مخيف، أفكر بأمي المقعدة على سرير الموت، فيتلبّسني الخوف، أعود إلى مصطفى من جديد فأشعر بالخوف أيضاً، لا شيء يفسر هذه الحالة المتصدعة ولا أملك القدرة على الخروج منها. بيني ومصطفى ضباب معتم وأزمنة مليئة بالدم، أعاصير هوجاء ومسافات مكدسة

بالموت، مازلت في ريعان شبابي، أحمل في أعماقي حيوات
عليّ أن أعيشها، بينما مصطفى الذي أوكلت اللحظة إليّ
العناية به يتمدد أمامي كجثة هامدة.

في صباح اليوم الثاني عدت إلى نزلي بعد خمسة أيام
من الغياب، حاجاتي مبعثرة على السرير، أخذت الجوال،
أجد الكثير من الرسائل، أخي الكبير أحمد يسألني عن
جديدي، يرسل لي صور أمي وهي تتصنع ابتسامة زائفة
على سريرها، أخبره بأنني متعب، يبحث عن تفاصيل الرحلة
التي تهمه كثيراً، تهمنا جميعاً، هذه الرحلة التي أسير فيها
محملاً بأنفاس سنوات من الآمال المهدورة، بآخر النسومات
الصاعدة من قلب أمي التي تقف على أمل مبتور يتضاءل
على عضلة قلبها دون توقف، أخبر أحمد بأنني سأرفق له
رسالة في وقت لاحق عن كل التفاصيل، أغلق الجوال،
أعود إلى حيرتي التي تأكلني منذ لقائي مصطفى، يحاصرني
الوسواس وعلى يدي الصورة التي بُترت أثناء التقاطي لها
من بين أيدي أصدقائه، الأرق يفتك بي، اتقلّب على
صفيح ساخن، كلما حاولت أن اغفو تتراءى لي ملامح
مصطفى مُلقى على الأرض؛ فأخرج من نفسي.

«أخي العزيز أحمد..»

منذ أيام وأنا دون نوم، أكتب إليك هذه الرسالة والأرق يحاصرني من كل اتجاه، وصلت المدينة صباح الخميس الماضي، كانت رحلة متعبة، ولم أكن أتوقع بأنني سأجد المدينة بهذه الصورة المخيفة، لا شيء قابلاً للحياة هنا، الموت يتربص الجميع، الفقر يجثم على بطونهم الخاوية، مدينة مشلولة يا أحمد، مسلوحة الحياة البسيطة، يتخطفها الوجع دون رحمة، ومع هذا يعيشون لحظاتهم بطريقة عجيبة، يأخذون حقهم من هذه الفتات القاحلة فيستريحون بها، وهذا صدمني بقدر ما أسعدني. تعرفت على البعض في المدينة، لم أكن مألوفاً في بادئ الأمر، لكنني خلال هذه الخمسة الأيام صرت حديث الكثير هنا، فقد وقعت في مصيدة الإنسانية يا أحمد، لا أعرف ماذا أسميها، لكنني وقعت في حبال مشدودة على خاصرتي، أجد صعوبة في توضيح الأمر لك، ولا أعلم ما الذي عليّ كتابته إلى أمي التي تنتظر مني الكثير، أرجوك أخبرها بأن كل شيء يسير على ما يرام، وأنت أيضاً يا أخي لا تقلق، بإمكانني تدبر

أمري حتى العودة».

بعد دقائق سمعت أحدهم يطرق الباب، كان صديق مصطفى الذي بقي معي في أول يومين ثم ذهب، لم أتعرف عليه جيداً، حينها أخبرني بأنهم أصدقاء منذ سنوات، وبأن الصورة التي معي تعود لمصطفى الذي يعرفه حق المعرفة، طلبت منه الدخول، بادرنى بالسؤال:

- كيف صحته؟

- لم يتغير، الدكتور يقول لا جديد، وعلينا أن ننتظر.

- أتمنى أن يتحسن، يقلقنا جميعاً وضعه.

الصمت يطبق على كل شيء، دقائق ونحن نجلس في مواجهة بعض دون كلمة. أيوب رجل خمسيني، يمتلك مكتبة صغيرة في المدينة، هذا ما عرفته عنه، طويل القامة، نحوله الشديد يعكس حالة الفقر التي يعيشها، يتحدث بهدوء، كان أكثرهم ضحكاً في لقائنا الأول، لكنه يقف الآن أمامي جامداً دون حركة أو صوت، الجمود يسيطر

على كل شيء، فقد الجميع ألسنتهم بعد الحادثة، كل واحد منهم ذهب إلى داخله ولم يعد.

- لماذا أغمي عليه، هذه كانت صورته، ملامحه، هيئته التي نعرفها، صحيح أنه لم يكن بذلك القدر من الحيوية التي تبدو عليه في الصورة، لكنه هو، أعرفه جيداً يا صديقي، لماذا أغمي عليه، أنت أيضاً جئت غريباً مليئاً بالاستفهامات التي وضعتها في عقولنا منذ الوهلة الأولى، لكنك لم تفصح لنا عن سبب وجودك في هذه المدينة التي لم يزرها غريب منذ سنوات، قلت إنك وجدتها في الانترنت، وهذا مثير للاستغراب، ماذا يمكن أن يتحدثوا عن هذه البقعة النتنة: ذباب، بعوض، مستنقعات في كل مكان، فقر وجوع وجهل وتحلف. لماذا جئت، تلبس معطفاً أسود في بلد يتفرقع اللهب تحته كتور هائج، لماذا جئت، هل هذا مصطفى؟ أرجوك، هل هي صورته، هل تعرفه من قبل، اصدقني القول؟

يتحدث أيوب وكأنه في لحظات استجواب مصيرية،

منفعل جداً، الكلمة من فمه ملتصقة بكلمة أخرى، الأسئلة المتزاخمة لا تترك فرصة للإجابة دون أن يلحقها بسؤال آخر، تفوح منه رائحة العرق الموزع على جسمه، جبينه مشدود ويدها ترتعش، وأنا كنت مثله، تحتلني الحمى من أخمص قدمي حتى قمة رأسي، لا أملك إجابة، لا أقدر على مجازاة هذا الاندفاع المخيف، أيوب الرجل الذي يكبرني بثلاثة عقود، تخور قواه أمام صمتي المشنوق بالحيرة، ومصطفى في غياب غامض لا نعرف أسبابه.

- لا أعتقد بأن الصورة السبب يا أيوب، لا تشابه بينهما، الفرق كبير جداً، أرجوك أن تعفيني من هذا الاستجواب وتذهب إلى صديقك مصطفى.

- لماذا أنت هنا؟ من أنت أيها الشاب؟

- لا يحق لك أن تسألني بهذه الطريقة، لست مخلواً يا أيوب بهكذا أسئلة، لقد كنت لطيفاً مع صديقكم وجلست معه خمسة أيام دون تدمر، أرجو أن تحترم خصوصياتي..

خرج أيوب دون أن يقول شيئاً، كان الشرر يتطاير من عينيه، قدماه التي تحمل ما تبقى منه تتخبط بدرجات

السلم، ولهائه يملأ المكان، عدت إلى السرير، مازال مصطفى ماثلاً أمامي، لا يتحرك، الخوف في عينيه، الحيرة في عينيه، اللهب في عينيه، التوسل في عينيه، والكثير من الأشياء الثقيلة في عينيه أيضاً، لم يكن منه سوى هذه الدلالات التي توحى بكائن بائس فقد كل مقومات الحياة دفعة واحدة.

في المساء ذهبت إلى المشفى، كانت قدماي تقودني إلى مصطفى دون إرادة مني، كل شيء في أعماقي يدفعني إلى الكائن الغريب الذي أفقدني اتزاني وأقحمني في متاهات كثيرة، مصطفى هذا ليس اسم من أبحث عنه، ملامحه المليئة بالندوب، ليست ملامح من أبحث عنه، لماذا سقط، لماذا اعتراه الخوف، ما الذي جعله غريباً وهو يحدق في ملامحي بطريقة مختلفة عن البقية، أخرج نصف الصورة من معطفي الذي لم أتخلَّ عنه، أتأملها بعمق، أستحضر مصطفى، عيناه في الصورة مشعّتان، وجدتهما هنا خافتين جداً، شعر مرتب وخصلات طويلة، لا شيء في مقدمة رأس مصطفى، ليست أنفه، هذه الجفون لا علاقة له بها،

مصطفى شخص آخر.

وجدت أيوب على المقعد الذي جلست عليه خمس ليالٍ دون أن يتحدث إليَّ مصطفى، على الأسرة الأخرى ينكمش المرضى دون حركة، وحده أيوب الزائر الذي يضع يده على رأس صديقه النائم، وقبل أن يلمحني أحد غادرت المكان.

الفصل الثالث

كان ليل المدينة هادئاً ومخيفاً، لا أحد يتجول في الشوارع، الأزقة المجاورة مظلمة، المحلات مقفلة، أصوات الكلاب تترامى من جوانب مختلفة، وأنا وحدي تلف الكآبة أطراف روحي، أستحضر نفسي الأولى فأبكي، تغشاني الذكريات، تحيطني بالتراجيديا، تحاصرني بالنهايات الموغلة بالدم، هذا زمن الحزن الطويل، زمن البكائيات الصادقة، لم يكن هناك ما نستريح عليه، كل الأشياء تعيش النحيب بطريقة أو بأخرى، الأرض دامعة، السماء راعفة، الدم في كل عين، الدمع في كل قلب، الأرواح المرتعشة مصابة بالجمود، القلق العميق يجلد العقل، الأجساد الهزيلة على كل شارع، الجوع على كل ناصية، الصوت المكبوت يموت قهراً، الحيات المنتظرة شاردة في خذلانها الكبير، كل شيء يدعوك للبكاء، لا أحد إلا الموت، لا أحد إلا الجوع. نحمل الآمال العظيمة في دروب ملغومة باليأس، تنكسر الأجنحة قبل تحليقها البعيد، طفولة تُهدر، ذكريات تُسرق، حنين يُمزق ويبعث، أمكنة تُغيب عن الذاكرة، كل شيء في ميوله

الأخير، انحداره الدامي، أصوات من هنا وهناك، صوت الفجيجة والفقذ، صوت الآه والأنين المدمى، الصمت المليء بالصراخ، الصراخ الضائع بالعويل، العويل الغارق في خوفه، هذه مساراتنا، هذه ملامحنا، بعد عام، ألفية العشاء الأخير، سوداوية المشاهد المشورة في القلب الضعيف، كل شيء هنا يقودني إلى تلك المشاهد التي أوغلت في طفولتي حتى أفقدتها بريقها الأول وجعلتني بها حاملاً يتوارى حلمه في الضياع البعيد. كان أبي ذلك الضوء، المصباح الذي تشعله همومه الكثيرة، تلك القوة التي ما إن فقدناها حتى تسابقت مخالب الحياة على تمزيقنا، ماذا أقول لأمي، هذا أمر يعذبني كثيراً، مطلوب مني تقرير مفصّل عن الأيام الأولى التي قضيتها هنا، وأنا لست سوى شبح خائر القوى. أُمِّي التي تعبت كثيراً تبحث في المنعطف الأخير من حياتها عن طمأنينة مفقودة، تفتش في مدن الموت عن موت مريح يعوضها عن سنوات الحرمان التي امتصت جلدها وحولتها إلى شجرة مجهولة ومنسية.

الساعة الثامنة صباحاً كنت على سريرٍ مبللٍ بالخوف، جسدي بالكاد تتوقف ارتعاشاته المتتابعة، تترأى لي الأشباح مكشرة في زوايا الغرفة الضيقة، كنت قد رأيت أبي في منامٍ سريعٍ يجلس وحيداً على ناصية الشارع الوحيد لمدينتنا التي كانت هائجة في زحام القادمين من غروبهم السرمدى، وكان وحده ينسج الذكريات التي فقدتها منذ غادر المكان المليء بالموت، يتعرّف عليه المارة وعلامات الحيرة تسبق خطاهم، وتسبق السؤال أعينهم الخارجة من بؤبؤ الزمان المسروق، هل هذا هو، هل هذا أنت أيها المنفي؟ ولم تكن الإجابات كافية، لم تكن الملامح المطلّة من داخله واضحة، لا أحد يتعرف على هذا المنسي الغريب، المسافر، المنفي البعيد، القادم مع الغبار المجهول. «الآن المكان ليس لي»؟ يسأل نفسه: «هذه هويتي، عدت من تلك المسافات المليئة بالدم، هذا أنا، أخرجتني نشوة وأعادتني خطوة تسير على الرياح المحتشدة من آلاف السنين». لم يكن أحد يسمعه، المباني المحجوبة بماء العين لم تكن تسمع أيضاً. «هل نُسيت حقاً؟». تساءل في عمق الهوة الواسعة بهذه الخطى المدفونة بالعمر الثقيل.

رأيتُه واقفاً وحده، كأنه يحاكم الزمن المسلوب من
حدقات روحه، «هل أنا الآن أنا، هذه أرضي، رقصتي
الأولى، وهذه سمائي، مرآتي الأولى، وهذه النسومات مني
أنا، تعرفني منذ الصيحة الأولى التي على إيقاعها حملني
أبي وكبّر في أذني فرحاً، هؤلاء أهلي، حملتهم على ظهري
ومشيت في الغياب المزدحم بالموت أغنيّ بهم، لم يكن نايّاً
ذلك الصوت المسروق من حنجرة الفقد الطويل، ولم يكن
حينئذ ذلك المبعثر على الأزمنة المختلفة، كانت ملامح
العودة، نشيدها، عزفها المنفرد المنساب من ضوء الذكريات
البعيدة، وهذا المصلوب في جدران أغنيّتي الوحيدة ليس أنا،
يشبهني، لكنني ما زلت هنا، أشرعتي معي، أغنيّتي معي،
قصيدي معي، ذكرياتي معي، ظلي معي، لغتي معي، دمي
معي، صوتي معي، وتلك الآهات التي عشت أصبّرها لي
ومعي أيضاً».

كانت المشاهد مفرعة، حالة التنكر التي أصابت أبي
بالفزع، وذلك الاغتراب الذي لم يكن يتخيله يوماً، وهو
الذي كتب في كل الصحف، تحدث عن إنسان البلاد
المنسي في جوعه وفقره، همومه وأحزانه، من حارب كثيراً

حتى لا تُسلب الأرض من أهلها، لا يفقد المرء كرامته
ووجوده، الآن لا شيء، لا أحد يتذكره.

عندما غادرت مدينتنا وعدت أُمي، وهي تتأمل
تقاسيم وجهي، أن أعود إليها وسنوات الفقد الكثيرة على
يدي مهما كلف الأمر، كانت ملاحظتها تتفتّح وعيناها
تشعُّ بريق أبيض، وبقية الأسرة حولنا يترصدون كل كلمة.

أبي الذي غادر منزلنا في مساء أهوج ولم يعد منذ
خمس عشرة سنة، لم تحظ أُمي منه بتلويحة أخيرة، ولم نكن
نتوقع هذا الغياب الطويل. لم يغب أبي يوماً عن ذاكرة
أُمي، عن أحاديثها، شجنها، حنينها، تلك الذكريات التي
ترسمها لنا كل صباح ومساء، المواقف التي تستدعيه فيها
كاملاً مكتملاً، الاعتزاز الذي تفاخر به، والتجسيد الذي
تعمل على ترسيخه في كل تفاصيل حياتنا، فكنا نجد في
كل زاوية من منزلنا وعلى كل ركن من مدينتنا.

عشت طفولة بائسة، لم أكن أملك حق الحياة كبقية

الأطفال.. كان الفقد الذي شعرت به مبكراً يسليخ الطفل داخلي ويدفعني إلى ميادين أطول مني، أخي أحمد الذي يكبرني ببضع سنوات هو الآخر حمل على كتفه هموماً ثقيلة قبل أن يعيش الحياة التي يستحقها.

أتذكر ومضات قليلة كنت فيها على حضن أبي وهو ينشدني قصائده المعلقة على أهداب قلبه، يدندن وعيناه تلمعان بالفرح، وكنت أنا ملاك هذا الاحتواء الذي تتحد السماء والأرض مع نبضاته الحنونة. لم أكن أتخيل أن يمر يوم دون أبي، كانت أشرعة الأحلام التي يشدها في أعماقي مربوطة بأنفاسه، وكنت أتطلع لذلك اليوم الذي نسير فيه معاً على قاعة مليئة بالتصفيق الحار الذي يمنحه حق الافتخار بهذا التصاق عظيم. كان العالم يبدو لي في صوت أبي، في عينيه، في خطواته التي تسبق قدومه كل صباح، العالم الذي تتقاذف على صدره حيوات لا حصر لها كان محصوراً في يديه الدافئتين وهو يداعب رأسي قبل النوم، وكنت مكثيفاً، لا يعنيني شيء خارج هذا الإطار، نشرب القهوة صباحاً معاً، نتقصد أخبار الناس في صحف نقرأها معاً، نزور زملاءه وأصدقاءه معاً، ولم أكن منفصلاً

عن تلك الحياة التي يعيشونها، بل كنت واحداً منهم لا يمكن أن يلغي حضوره أي حديث أو نقاش عميق. لقد كلفني هذا كثيراً، وجعلني أتوخى الحذر في دروب كثيرة سرت بها كما لو كنت على حقل من الألغام، ولم يكن هذا خوفاً ناتجاً عن أبويّة شديدة؛ كان عزمًا تكسوه المثالية المبكرة التي فرضتها ثقة مبكرة أجاد أبي في بذرها وسقيها.

أتذكر عندما هرعت إليه في الصف السادس وعلى يدي شهادة النجاح متفوقاً على الجميع، وهو يقفز من بين رفاقه ويحملني بين يديه راقصاً كالغفريت، حينها شعرت بأنني صرت مسؤولاً عن هذه الرقصة، لهذا قاتلت بضراوة من أجل هذا المشهد فقط، من أجل أن ترقص الغيوم في وجهي، وتداعب النسمات خصلات شعري، وتفتش الحياة زاهية تحت قدميه النحيلتين، في رقصة سأعيش بقية حياتي على وقعها.

رأيت أيوب يقطع الشارع المؤدي إلى النُّزل، لحظات

الغروب التي أشاهدها من النافذة كئيبة، وأيوب يسير
منسجماً مع المشاهد الساكنة التي تتوارى خلف خيوط
النهار، لم أتركه يطرق الباب، بادرني:

- مصطفى يتمم بأشياء غريبة يا ولدي.

- مثل ماذا؟

- لا أعرف، لكنه يهذي، كنت معه ولم أفهم كلمة، يهذي
ويبكي أيضاً.

- هل قال الدكتور شيئاً؟

- قال سيكون بخير، فقط يحتاج إلى الراحة، لا علامات
مخيفة، هذا ما قاله الدكتور، لكنني بحاجة إلى مساعدتك.

صعقني أيوب، لا أعرف ما الذي أخافني من طلبه
المساعدة، شعرت بهزة في جسمي، وشردت دون أن أقول
شيئاً. أيوب يتجول في الغرفة الضيقة وأنا لا ألوي على
شيء، واقف أمام النافذة أتابع تراجعها الطبيعة وهي
تنكمش على سوادها، يصارعني مصطفى بكلتا يديه،
يشدني إلى سريريه ويطلب مني الاقتراب، أعود إلى نفسي،

ما الذي يحتاجه أيوب مني، هل أرسله مصطفى، لماذا أنا دون سواي من يمكنه المساعدة، مازال أيوب يتخبط جوارى، يمسك صوته من أطرافه، ويعيد الكرة مرة أخرى في شهيق كلما أوغلت في الشرود أرجعتني زفراته المتقطعة: .الدكتور يقول بأن مصطفى مجهد ذهنياً، وأن حادثة ما هي السبب في ذلك.

لم أقل شيئاً، أتابع تسلل السواد من جهات مختلفة، انقشاع السماء، خفوت السحب، وفجأة أسمع صوت أمي: «أرجوك يا ابني كن يقظاً» التفتُ إلى أيوب؛ فلا أجد إلا ظلاً نحيلاً متوزعاً على زوايا الغرفة.

لحقت أيوب دون إرادة مني، هبطت في عتمة البناية،
أتحسس الجدران بيد مرتعشة، أيوب، صوتي يسبق خطاي،
وصدى ثقيل يحاصر حنجرتي، ألفيته على الطرف الآخر
يسير ممسكاً نفسه من السقوط:

. ما الذي تريده مني؟

. الحقيقة..

- حقيقة ماذا؟ أنا لا أعرف شيئاً، وجدتكم جميعاً؛ وحدث
ما حدث، لم أقدم على أي عمل آخر.

لا أعرف ما الذي يجعلني لا أفصح عن سبب مجيئي،
لماذا أتمسك بالكتمان وأنا بحاجة إلى المساعدة، ولماذا
توقفت على حادثة مصطفى دون البحث عن المفقود
الأهم، أسئلة كثيرة تأخذ مداها في ذهني، دون أن أستريح
بإجابة واحدة. لم يتوقف أيوب عن السير، ولم يقل شيئاً،
كانت معركتي وحدي وكنت بها أعزل من أي سلاح. عند
المنعطف الأخير من الشارع طلب مني أيوب العودة دون
أن يلتفت، وحثّ خطاه في ظلام مخيف.

الفصل الرابع

في أحد الشوارع صادفت عجوزاً غاضباً، القلق يملاً تقاسيم وجهه، حائقاً بشدة، يطارذ ذرّات الغبار بيدٍ مشلولة، وبين الحين والآخر يرفع صوته باللعن الذي يفقد الشارع المزدحم حركته وصخبه، يقف على قدميه بلعنات كثيرة، يعود إلى كرسيه متمتماً وساخطاً، لا أحد يعرف ماذا يريد، كنت على مقربة منه، وكلما حاولت الإمساك به يفشلي شرره المتطاير من عينيه. «اللعنة»، هكذا يقول، وهو يبصق بوجه الجميع: «أنتم جناء، لا حق لكم بالحياة، اللعنة، الأنقياء يأخذ حياتهم الخبثاء، لا قيمة لهذا الوجود المتعفن بكم، أنتم لعنة الإنسانية، شعب ذليل أحمق، يستحق الموت». يقف بعد هذا الهذيان ملوّحاً للسماء، لا نعرف من يخاطب، يتسمّر في المكان كأن شبحاً يطارده، يعود إلى رشده، الرصيف الذي يعتلي ناصيته يزدحم بالناس، يتأملهم واحداً واحداً ثم يعود إلى كرسيه، يتلّمس حبات العرق المنسابة على جبينه: «اللعنة، هذا زمن المنحطّين، لا بقاء للأخيار هنا، في كل

زاوية من هذه البلاد قاتل، سارق، فاسد، ملعون أحمق، النبلاء ذهبوا، وبقيت أنا وحدي أعيش في حظيرة كئيبة، أين بلادي، أين فردوس أجدادي، هؤلاء من نسل آخر، اللعنة عليكم أيها الحمقى». لا تتوقف لعناته، نسمعها حتى وهو يهذي، فجأة يعتلي الكرسي، يتأمل الجمع، تشرّب الأعناق، تفر الرؤوس بعيداً، تعانق الأعين الحائرة زمناً خائفاً مرعوباً، والصمت يخنق كل الأشياء المحيطة، السكون يلف المكان الذي تعلقت حركته مع تسرّب هذا الغضب الجامح، عيناه طافحتان بالغيظ، كل شخص أخذ منهما نصيبه، زفراته الملتهبة تطال الجميع، دقائق دون أن يقول شيئاً، سكون يأخذ الطمأنينة من تلايبها، قلق في كل عين، حيرة في كل عقل، وحده المعني العارف، ينتظر الجميع نهاية المشهد الذي بدأه غاضباً، كل واحد منا أخذ يرسم المشاهد الأخيرة للسيناريو، وكنت وحدي الأقرب الذي يتأمل هذا الحانق.

رفع يده مرة أخرى، أخرجها من رعشاتها وتمرد بفعل صوته الصادح على قبضتها: «أنتم تبحثون عن النجاة بأيادٍ خائفة، تعيشون حياة مسروقة من المقابر، لا قبل لكم

ولا بعد في هذا المأزق الذي جاء من صلبكم، يتأملكم العالم بخوف، لا أحد يقبل بكم، لا أحد يريد الاقتراب منكم، كومة من الأشلاء، بقاع من المقابر، شخوص مليئة بالنفاق، وشعب يحكمه العملاء، هل هذه قيمكم أيها الحمقى، تشفقون عليّ، دون العودة إلى أنفسكم التي تشفق على حالها الحمير، تهربون من واقعكم البائس إلى تاريخ عريق ملأته حماقاتكم بالسخرية والعبث، هذه أرضكم، وهذا شعبكم، أنتم الفصيل الأكثر غباءً على الوجود، يأتي المرء إنساناً ويعيش حيواناً خبيثاً، يفترس قيمه ومبادئه وشعبه، ينتصر لشهواته التي تُخنق فيه الإنسان حد الموت، ومع هذا تعيشون الحياة كأن شيئاً لا يعينكم، البلاد مليئة بالخوف أيها الجبناء، أخفتم بها الحجر والشجر وسلبتم إنسانية أهلها، والآن تقفون بوجهي، تخرج من أعينكم الشفقة عليّ وأنا واحد منكم، واحد أحمق كان عليه أن يدرك نفسه بالموت قبل أن يعيش بينكم، قبل أن يجد نفسه دون قيمة، دون هدف، اغربوا عن وجهي، اللعنة عليكم». ثم قفز من كرسيه وأخذ يطاردنا بالحجارة في كل الجهات، ثم عاد إلى كرسيه، إلى شروده، يحمل دفترًا وقلماً ويكتب دون توقف، والجميع يراقبه من بعيد، وكنت أقربهم إلى مكانه،

الشمس تنحدر على وجهه، وهو يكتب، يرتعش، يتقيأ، يلتوي على بطنه، ثم يعود إلى شروده البعيد، مرت دقائق دون حركة، دقائق دون لعن، لم يقف على الكرسي، لم يعد إلى هذيانه، راقبتُ يده دون ارتعاش، الكل يأكله الفضول، الخوف، القلق، لقد كان المشهد الذي سبق هذا الهدوء عاصفاً ومخيفاً.

تحركت قليلاً، اقتربت متعمداً إثارة سكونه، لكنه لم يتحرك، قفزت إلى كرسيه فوجدته قابضاً على ورقته بشدة: «أريد القليل من الأمان، أن تُربت على قلبي الحياة دون أن أجد على أطرافها دمماً مسفوحاً يحمل ألوان بلادي، أحلم بالغفوة التي أعود منها دون فصول من الذكريات الشاحبة تقف أمامي، أمنيقي أن أجد مناماً صافياً لا تسير عليه الجثث، قلباً لا تتقاتل في أعماقه الآهات باحثة عن مخرج صغير، حيوات أراقص نسماقتها والقلق يتأملنا من بعيد غاضباً وحانقاً، أريد أن أعود إلى نفسي وكل الأشياء التي أحببتها طفلاً متلائة دون خدوش أو ندوب، أن أسير متخففاً طائراً على أهداب عمري الطويل دون أن تغتالي ذكري دامية، أريد بلادي السعيدة».

ليل ساكن، الكل يغط في نومه، لا أحد يخرج متفقداً
هذه الشوارع إلا قلة من السكارى، لا أحد يتسكع باحثاً
عن جثة جائع مُلقى على الرصيف، بعض هذه الجثث
نصف عارية والآخر بالكاد تغطيه أقمشة مقطّعة، أسأل
نفسي في كثير من الأحيان: لماذا هذه المدينة المليئة
بالخوف، ولا أجد إجابة مقنعة. لم أتعرف بعد على الكثير،
ربما أعطني النماذج الظاهرة تصوراً كلياً عن الحالة العامة،
وهذا تحديداً ما يجعلني بائساً طوال اليوم.

منذ يومين لم ألتق أيوب، لم أزر مصطفى، تراكمات
كثيرة تعيق خطواتي في البحث عن الشيء الآخر، تحاصرني
الكثير من الأسئلة التي ما أن أهرب منها حتى أشعر بشبح
مصطفى يحوم في رأسي، أفكر بالعودة إليه، شيء داخلي
يدفعني لهكذا خطوة، وأشياء أخرى تقف بوجهي، كان
أيوب حاداً في اللقاء الأخير، لم يبحث إلا عن سبب
الحالة البائسة التي يعيشها مصطفى، أنا نفسي أبحث
عن هذا السبب، تراودني كثير من الأسباب التي لا صلة
لي بها، ومثلها أيضاً تربطني بأطراف ذلك الإغماء الذي

أفقدني اتزاني وقادني إلى هذه الحيرة.

بالكاد نمت، رأيت أمي في المنام وهي تسير نصف عرجاء،
تتمايل خوفاً من رياح عاتية تحيط بالمكان، وأنا بعيد
أمسك عكازاً لا يخصني، كنت كلما اقتربت منها تأخذني
الرياح في دوامتها ولا أقدر على الإمساك بيدها.

كان عليّ أن أهاتف أمي، أخبرتها بأنني بخير، كان صوتها
شاحباً، تحاول السيطرة على هذا العجز؛ فتفضحها نبرة
دامعة، أطمئنها بأن كل شيء سيكون بخير. ثم أعود إلى
نفسي فاقد التركيز.

صباحات هذه المدينة لا تختلف عن مساءاتها، حتى وإن بدت في نقيضها، من يفترشون الليل عراة جائعين، هم أنفسهم يفترشون الصباح وأيديهم ملطّخة بالعجز، تبدو المنازل كأنها لا تختلف عن ساكنيها، بالكاد تُمسك نفسها من السقوط، البهوت يكسوها من كل جهة، الناس منتشرون في السوق، كل واحد يفتّش عن خبزه اليابسة؛ فيعود إلى أطفاله قبل غروب الشمس، كأن الحرب قد فرضت عليهم هذا الهروب الأبدي. ترتعش أحاديثهم التي تلازم الأعين المتحركة وكأنها تخشى مطارداً أميناً خبيثاً، لا يتحدثون كثيراً، يلزمهم الخوف دائماً، تربض بين بعضهم مسافات ثابتة وكأن المدينة طافحة بوباء قاتل، فقط تلك الجماعة المسكونة بالضحك والأحاديث المنتعشة تتسرب منها الأصوات إلى كل مكان، لا يمكن أن تمر جوارهم دون التفاتة، ويبدو بأنني الوحيد الذي ألتفت إليهم في هذه المدينة، وليتني لم أفعل.

عدت إلى غرفتي فوجدت أيوب واقفاً أمام الباب، يحمل أوراقاً كثيرة، صافحني بحرارة، لم يفعل ذلك من قبل،

لا أعرف بأي طريقة أتحدث معه، لكنه كان منتعشاً هذه المرة، أمسك بيدي وأنا أدير المفتاح، وجلس راضياً عن نفسه، كأنه خلق من جديد.

لم أقل شيئاً، كلام قليل، وصمت، هو نفسه كان يتأملني، يفحصني بصمت، ويده تلاعب الأوراق الصفراء. سألته عن مصطفى، قال في أحسن حال، ثم وقف فجأة ووضع الأوراق على الكرسي وذهب.

الفصل الخامس

هبطت أشعة الشمس على المدينة وأنا ما زلت أتنقل من صفحة إلى أخرى، لم أتردد لحظة أمام الرزمة التي وضعها أيوب وذهب دون كلمة، أخرجتها من الرباط المحكم لأفتشها واحدة تلو الأخرى، كنت أجد في بعضها ربكة تفوح منها معانٍ قلقة وهياج مليء بالحنين، والبعض الآخر فيه سواد محكم، مناجاة لا تتوقف، غضب مشتعل، وصرخات مدوية، لم أكن أتخيل بأن هذا كله حدث خلال سنوات معدودة، ولم أستوعب قدرة التدوين بهذه الكثافة وهذه الدقة، والاحتفاظ بكل حرف حتى الآن. عندما وقعت عيناى على السردية الأولى، صُعقت، لم أفهم شيئاً، كان الغضب المسيطر على الموقف، والحالة الإنسانية التي تتقافز في هذا السرد مخيفة جداً، سجين يحاكم عجزه وكأنه يقف أمام الملاء، تلاشت أمامه كل الفوارق ولم يعد يملك من بلاده إلا هذه الرقعة الكئيبة، كما وصفها، والشعب المسجون فيها:

زوجتي العزيزة:

كان عليّ أن أمنحك الحياة التي تليق بك، أن أشرع لك الأمنيات التي سكنت روحك منذ أول لقاء، لم أكن أتخيل هذا العجز الذي يعتريني وأنا واقف هنا أرمم بقايا إنسان على وشك الجنون، لن تصلك هذه الرسالة، أعرف بأنها ستبقى عالقة في جروحي وحدي، لكنني لا أملك إلا الكتابة إليك، ولا طريقة تمكني من الصمود أكثر إلا هذا الشكاء الطويل الذي يريد أن يأخذ حقه تعويضاً عن كل الضربات التي تنهال على صاحبه كل يوم. عندما اتخذت قرار النضال في سبيل القيم العظيمة التي أوّمن بها، لم يكن أحد سواك يدفعني لهذا الطريق الشاق، كنت ألمح في عينيك زهواً يخالطه خوف مريم، لم أجد التململ وذلك الرجاء الذي يفقد الرجل اتزانه، على العكس من ذلك، طوال السنوات التي أخذتني منكم وأنا أبحث عن حياة كريمة للإنسان في بلادنا، الآن أشاهد كل يوم أظافر مبللة بالدم، صيحات مفرعة تأتي من غرف التحقيق وتأخذ منّي الكثير، أشعر بالعصيّ وهي تهوي على عظام الضحية فتصدر منه فرقعات مميتة، اللحم البشري يتحول

إلى موسيقى تريح الجلاذ ويظل يعزفها طوال الليل، تأخذنا
هراواتهم واحداً تلو الآخر، ودون صوت منا، لا يريدون
أن نتكلم، وما أن نبتلع ألسنتنا حتى يطالبونا بالحديث،
يحوّلون أصواتنا إلى زعيق ثرثار لا يتوقف، ومن حولنا
تأتي أصوات السجناء وهم يراقبون بأذانهم هذه الفصول
المعتادة، نطلب الموت ولا نحصل عليه، نترجاهم ضربة
قاتلة؛ فتوغل أصابعهم في حناجرنا حتى تكاد تقتلعها.
مرت سنوات يا عزيزتي ونحن على هذا المسرح نقدم عروضاً
بكائية سوداء، تتقاذف التراجيديا دون خاتمة مقنعة، وهذا
لا يرضي السجّان؛ فيعود على المسرح من جديد بأدوارٍ
أكثر إتقاناً ومهارة.

لم أعد أنا، سرقوني مني، منكم، هذا الأمر يخيفني
كثيراً، سُلبت إنسانيتي، الأصوات التي تخرج من غرف
التعذيب لم تعد تثير ضعفي، أتابعها بصمت فقط، صرت
لا مبالياً بهذا الكم الهائل من التوحش، كانوا يأتون منتصف
الليل ويطلبون مني مرافقتهم، زوجتك وأولادك في غرفة
الزيارة، هكذا يوهمونني، أتردد دون فائدة، لم أرغب بأن
أراكم وأنا على هذه الحالة، ولأنهم يعرفون ذلك؛ يجّهزون

ملا بس جديدة ومن يزّين رأسي وملاحي، وهذا الأمر كان مشجعاً، أخرج بلهفة أتلّمس الجدار خوفاً من السقوط، وحين أصل منتصف الساحة تتقاذفني الركلات من زاوية إلى زاوية، تصفعي اللكمات دون رحمة، تهوي عليّ ضحكاتهم وهم فوق رأسي يرقصون بطريقة هستيرية، ثم أترك وحيداً حتى تشرق الشمس، مرات عدة بهذه الطريقة وهذه الكيفية يا عزيزتي، حتى صارت فكرة العودة إليكم مرعبة جداً.

المخلص نبيل.

زوجتي العزيزة:

الوضع هنا مخيف جداً، أخاف العودة بعد كل ما حدث لي، لا أجرؤ على النظر إلى نفسي، منذ سنوات لم أشاهد ملامحي، أتلمس وجهي فأجده مليئاً بالتجاعيد، عظم متوزع على أطرافه، اللحية الكثيفة التي تثير في أعماقهم وحشية من نوع آخر وهم يجرؤوني بها ذهاباً وإياباً، كنت في بادئ الأمر أحاول التملص من بين مخالبتهم، لكني الآن لا أعبأ. قبل أيام علّقونا على سياج حاد، أجبرونا على خلع ملابسنا وقادونا عراة إلى ذلك السياج، لم نكن بكامل وعينا، نسمع صيحاتهم وضحكاتهم وهتافاتهم: «تريدون الحرية، هذه هي يا كلاب»، هكذا يتحدثون، تتعلق السجائر في شفاههم ثم تتوزع بالتساوي على أجسادنا، يضغطون أعقابها بقوة، يشدون أذرعنا حتى نسمع طقطقاتها، ثم ندخل في حالة إغماء قصيرة جداً؛ فهم أيضاً يساعدوننا على الخروج من هذه الحالة ويعاد السيناريو بنفس الطريقة، يتحول الإنسان فيهم إلى وحش آخر، هذه الوحوش التي لا تشبه غيرها، تتسابق أنيابها على نهش أخيها الإنسان بضراوة عجيبة، وكأنهم بهذا

الفعل يجدون متعتهم الوحيدة في هذا الوجود.

آه يا زوجتي العزيزة:

سواد قاحل يچثم على كل شيء، الإنسانية معدومة هنا، لم يعد أحد يكثرث للحياة. قبل فترة رأيت طفلاً منزوياً في ساحة السجن، ملامحه البريئة كانت تقول كل شيء، ينكمش على نفسه في مكان بعيد، يخشى أن يتعرض لأكثر مما تعرض له، كان ينظر إلى الجميع بعينين خائفتين، لا يقترب من أحد، من بقعة إلى أخرى يسير صامتاً مهزوزاً وكأن جبلاً من القهر رابضة على ظهره، حاولت أن أتحدث إليه دون فائدة، أعين الجنود تراقب كل حركة، وتسجل كل علاقة جديدة تقام في أوقات التشميس التي تُمنح لأجسادنا يوماً واحداً في الأسبوع، أراه في كل مرة مختلفاً، يزداد شحوباً، تتقلص قواه، نحوله المخيف يزداد بصورة مفرعة، آثار التعذيب في عينيه، ذات ليلة وصلني صوته من الغرفة المجاورة، كان يُصعق بالكهرباء فنشعر بالجدران تهتز من صيحاته الدامية، تترامى إلينا

ضربات الهراوات وهي تهوي على جسده، يستمر في الصراخ، تتصاعد حدة البكاء الطفولي الذي يخرج من أحشائه، نسمعه يتأوه مناجياً أمه: «يا مااه»، ينزع هذا النداء من قلبه حتى يغمى عليه. صوته الضعيف ينخر في ذاكرتي حتى اللحظة، كان يقفز من صدره راجياً الجلاد قليلاً من الرأفة، فبنكي جميعاً بكاء هستيرياً. في يوم التشميس رأيتهم يجرونه إلى زاوية بعيدة، لم يعد قادراً على الوقوف، وكأن شيئاً في عموده الفقري قد كسر، سُلت حركة جسده، حتى عيناه لا تنظران إلى أحد، شعرت بأنه اكتفى من المناجاة ولم تعد رغبة الحياة تسيطر عليه، مررت جواره، رائحة غائطه وبوله تفوح منه، ملابسه مليئة بالوسخ، رأسه متدلياً دون حركة، يدها منفلتان، وجهه مليء بالكدمات.

بعد أشهر حُكم عليه بالإعدام مع مجموعة من السجناء، أجبرونا على مشاهدة هذا العرض الدموي، رأيتهم يسحبونه إلى ساحة الإعدام، كانت عيناه زائغتين، تبحثان عن شيء مفقود، تتأكدان من كل شيء حولهما. خلته لا يستوعب اللحظة، رأيت في نظراته صوته الذي كان

يناجي أمه إثر تلك الضربات التي كسرت قوام جسده؛
فكتبت وصيته والدم على فمي، راقبته وحده، كنت أخزن
في ذاكرتي كل حركة منه، وكأنني الوحيد من يسمعه هنا،
أتخيل بماذا كان يفكر الآن ويشلني الخوف، عندما أطلقوا
عليه الرصاصة الأخيرة وصلت إلى قلبي تنهيدته المتقطعة
«يا مااه»؛ فكتبت إليها رسالته الوحيدة:

كُسرْتُ من خاصرتي يا أمي، سُلبت طفولتي، حقي
في الوقوف الشامخ في الرحيل الأخير، سلبوني الأنين الذي
تحوّل إلى شفرات تدمي قلبي وحدي، نالوا من أحلامي
وأنا أُجرُّ كالحيوان الهارب أمام سياطهم الملتهبة، كانوا
يقفون على رأسي والموت متوزع في أعينهم، يشمرون عن
سواعدهم أمام جسد عارٍ وهزيل ومليء بالندوب، أنت
قتلته؟ لا أعرفه، لم أعرفه، ليتني أعرفه، لم أقتله، لم أمنح
الآخر حق القتل.. ودون أن أكمل تشلني الكهرباء من
أطراف روحي، أتقافز كعفريت، أخرج من نفسي وأعود
إليها آلاف المرّات، يوقظني الموت من موتي، تعيدني
الضربات المكهربة من جديد إلى أوجاعي التي تبحث عن
مبرر واحد يمنح هؤلاء حقاً شريفاً ومحترماً، ولم يكن، لم ينل

القتلة إلا الدم المتحجر في فمي، لم أكن أتفوه بشيء، كنت أشعر بأنينك في جسدي كله، أتأملك خلف صيحاتي وأنت واقفة على باب موصد بالقهر، أتأمل طفولتي التي لم أعشها لحظة واحدة وهي مليئة بالدم، هذا اللون الذي طالما أخافني، كان واقفاً طوال الوقت أمامي، يتسرب من أحشائي، يقفز من حدقات روحي، يهرب من قلبي، ينزف من كل جوارحي، بينما أنا لا ألوي على شيء، أتبول على ذكريات لم تعد لي، يمنعني الخصر المشروخ من الوقوف على قدمي، تأخذني صفة وتعيدني أخرى، تتصيدني الركلات من زاوية إلى زاوية، من ناصية إلى ناصية، يسألني السجان الخبيث: لم قتلته أيها القاتل؛ فأبكي، أهرب إليك، أحبو على صدرك بجسد مرتعش، أناجيك في ظلمة كثيفة وموحشة، أرسمك على نزيف ماطر بالذكريات الموجهة؛ فأبكي، تعاود الأصوات جرّي من جديد، تسلخني عن نفسي، تفجّر أوردتي، تكسّر أضلعي، تفتقأ عيني؛ فأبكي، أتوسل صوتك من ظالم مستبد؛ فيصق في وجهي، أعود حبواً إلى كومة من السنين القاحلة؛ فأتمناك مطراً أخيراً يعيد إليّ نفسي.

آه يا أمي، يا وجعي، وحسرتي، وموتي الكبير، آه يا
بهجتي المسلوقة، يا عمري المخطوف، يا طفولتي المغدورة،
آه يا خووفي وقلقي وكل هزائمي، الآن أشعر بالموت،
أتحسسه في فمي، أطلبه التريث قليلاً، أقبل رحمته لعلي
ألقاك من جديد، ولا شيء، فقط هذه الحشود التي ملأتني
موتاً، هذه المخالب الملتوية على طفولتي وسنوات عمري.
تمنيتك هنا، أستغيث بوجهك يا أمي، أنسج كفني الأخير
وكل حدقات قلبي في عينيك، لكنني شاهدت الموت
وحده، تعرّفت على أنيابه وهي تتسابق على قتلي، الكل
يريد القصاص مني، هذه الكلمة التي طالما سمعتها منذ أن
اقتادوا طفولتي إلى العتمة التي تراودني في أحلامي.

الآن أدرك حجم فاجعتي، أتلمّس دمي في كل مكان،
أشاهد الكل يزحف على صدري، وليتك واحدة منهم،
ليتك هنا تمنحين هذا الموت قلادة شريفة من قلبك الكبير،
ليتك هنا في رصاصاتهم وحناجرهم وأيديهم الخبيثة، علّ
هذا يمنحني راحة في الموت حتى وإن كان على يديك.

زوجتي العزيزة:

أشتاق إليك كثيراً، ولا أستطيع العودة، تحاصرني الذكريات، وتجعلني أهذي في مناماتي وصحوي، لا شيء هنا يتملّكني أكثر من الحنين إليك، تربطني بك هذه الدروب التي لم تعد تُضعفني، أبتاوز بك ظلمة الزنزانة وظلام السجن وكل الأسوار الشائكة المثبتة على قلبي. أحياناً أشعر بالخوف على أطفالنا فأطمئن أنهم بخير معك، أشعر بسكينتهم وهم بين يديك؛ فأصبح أقوى.

أتدرين يا حبيبتي ما الذي يؤلمني في هذه الخطابات التي أواسي نفسي بها وأنا أرفعها إليك، هذا الكم الهائل من السواد الذي يمزق الأشياء الجميلة التي يجب أن تقال والتي عليّ أن أقولها حتى وأنا بهذه الحالة المزرية، أحاول التهرّب من واقعي هنا، ولا أقدر، صوت الألم يدوي في كل مكان، يزحف إلى زنزانتي حتى أخاله في رثتي التنتة.

عندما أرغب بقول شيء جميل يليق بجلالك في قلبي، أشعر بغصة تملأ حنجرتي، تتدد المشاعر الإنسانية الصادقة؛ فتبقى في جوفي صيحات لا قدرة لي على إخراجها، أهرب

كثيراً من التفكير بالأولاد، هذا أيضاً يمزقني بشدة، عجز
يجلدني دون هوادة، هل كان عليّ أن أخوض هذا المعترك
وخلف ظهري حيوات تتسلل إلى رأسي من أجل الوقوف،
وها أنا ذا الآن مُنحن من الداخل كحشرة غريبة، هل
يتفهم أولادي هذه الحالة التي أنا عليها، هل سيفتحون لي
أحضانهم، بكل تأكيد سأعود غريباً، وأنا لا أرغب بهذا،
أصابعي تتقلص كل يوم، تشنجات تصيب روحي، قلبي
يتقافز من الألم، كآبة مفترشة على كل مفاصل ذهني، أي
طبيب قادر على استرجاعي، إعادة الحشرة المنسلخة إلى
إنسانها الأول، التخلُّص من النمو الرجعي الذي ناقض
ما سمعته كثيراً في أصل الإنسان، هذا أنا الآن، أبحث عن
نظرية تؤطر هذا الكائن البشع المنحدر من أصله الإنسان
إلى حالته المزرية وهو يزحف في بقعة ضيقة ومظلمة.

غداً سأسلخ من جديد، أتهيأ للأمر قبل أن تأتي الوحوش،
أحياناً تأتي قبل حضورها المعتاد، تباغتني لحظات الغروب
التي أسمعها بالخارج وهي تفتح أغصان الشجر الحزينة، وفي
مرات أخرى أفترش زناتي فأجدهم يجرونني خلفهم إلى
غرفة العذاب، يعاودون السيناريو الناقص لتسحق روحي

بالعذابات التي لا تترك جزءاً مني دون دم، وهل تكفي
هذه العروق وهذه الدموع وهذه الصيحات لكل المشاهد
المكررة؟ هل سأتحول إلى حجر صمّاء، هذه أمنيّتي، وحلم
أشباهي في كل السجون المخفية.

زوجتي العزيزة:

أتذكر أطيافاً كثيرة عشتها وعاشت في أعماقي، صوت أبي مع نداء الفجر الأول، تأففنا من غفوة طالت أعيننا ونحن نراقب السحر من تحت المعاطف الثقيلة، كنا حينها أطفالاً وكانت الطقوس الرمضانية تنفخ فينا روحاً مختلفة، نشعر بها وكأنها من فرط لهفتنا قد عمّدت في مياه تكويننا الأول، نشتمُّ رائحته على بعد أشهر، نراقب العد التنازلي كل يوم جديد يسقط من الحسبة الطويلة، نشاهد في أعين الأمهات قلق المؤنة وتوجسات التجهيزات المبكّرة للعناق القادم، نتابع خطوات الآباء الصباحية وهم يجهدون أنفسهم من أجل توفير احتياجات الشهر الكريم، ولنا أتعابنا، لنا التزاماتنا التي لا يمكن تجاوزها، نقبل السماء كل يوم، نواجه الفكرة نفسها كل لحظة، نراقب طيفاً ذاهباً وآخر عائداً من شفق الجنة العطرة، كل هذا على سجادة الشغف الطفولي الذي تمتلئ به الأعماق.

تجنّح تسبيحات أمي مع جنوح سفينة الانتظار المثقلة بالأيام الرتيبة، تأخذنا صلوات أبي إلى بدرٍ خجولٍ يشاهد

على الأرض قفزاتنا ورقصاتنا، نهرب صباحاً من ضوء السماء بإقفال أعيننا خوفاً من غضب الله؛ فناكل شمس الظهر وكأنها قطعة الحلوى المنتظرة، نغرق في التفاصيل المجهولة خوفاً من ألا نكون جديرين بالصيام حتى الرمح الأخير من نهارٍ يسابق بعضه على إشباعنا، نشرب دعوات العابر المستكين وعلى فمه سواك مأخوذ من بياض القلب، نشاهد الملامح المكفهرة في مدينتنا وقد استحالت إلى حدائق منتعشة ومتألئة، ونحن في هذا كله نحب الله، وكأننا على موعدٍ مع صلاة أخيرة، نهرع إلى تلمس أواني منزلنا الممتلئة بالحب والحنان والبركة، نرتدي الفردوس في أثوابٍ مفصّلة من روح أمنا، نقف على ناصية المطابخ بجذيرٍ من شظايا معركة تخوضها النساء الطيبات؛ حتى نقتنص فرصة سرقة اليوم الأول من صيامنا، اللحظة الأولى من جمال إفطارنا، ونحب الله كثيراً، نعيش على محبته، نحمل أنفسنا ومعنا أيادينا التي أخفت أعيننا من توثيق اللحظة؛ لتكون لنا مقاعد المغرب المليئة بالسكينة والحب، نراقب أعين الآباء وهي تتابع جلوسنا قبل أن يخرج من أفواههم السؤال الثابت: صايم يا ولدي؟ فتكون الألسن الممتدة على شفاهنا هي البرهان، الألسن المتسابقة على

الدليل القطعي؛ فنحب الله أكثر، نحبه في أعيننا، قلوبنا،
أرواحنا، براءة طفولتنا، نحب لحظة الصحو الأولى، وأكثر،
لحظة الستر الذي يضعه على ألسنتنا المتدلّية أمام الأسئلة
الحازمة.

تتقمص الحياة أدوراً لا يمكن أن نجاريها بهذا الهوان،
تضيق بنا الآفاق الرحبة التي ملأناها وهماً؛ فتتناثر حيواتنا
رماداً متطائراً على كل جهة، ذلك الإنسان الذي اعتاد
هذا الصراع لم يعد اليوم قادراً على البقاء أكثر، كان يعوزه
الاعتیاد، اليوم أصبح يبحث عن الخروج من هذا الاعتیاد
الذي تجاوز حده، لم يعد يقدر على الاندماج المعلق على
أهداب طموحه المكسرة، ولم تعد القوة الكامنة في دواخله
ملكاً له، إنه يتلاشى كل يوم بفعل الأوهام التي وزعتها
آماله القاحلة على سنواته الأولى؛ لقد أدرك الواقع المستبد
فوقع على رأسه، كانت له طموحات توازي نفسه، ارتطم
فجأة بالخيال المسموم، ارتفع حيث غيومه الهشة، دارت
به الظروف حتى أغمي عليه، حينها أدرك جيداً بأن تلك
الخرائط المنزوعة من كتب كاذبة وأقاويل خادعة لم تكن
إلا سكاكين حادة تقطع عمره. والآن في خضم الضربة
الأكثر وجعاً، يسأل نفسه: هل هناك أبواب أخرى لوهم
مفترض ومؤقت؛ فيجد الأعاصير المتزعة بالدم واقفة على
بابه، يلمس الأمواج المتلاطمة بالحقائق المزعجة؛ فتخور
كل قواه. لقد تقلصت إمكانيات المقاومة، لا أعرف هل
- تقلصت - مناسبة في حالة قُضمت من أصلب زاوية

معنوية للإنسان، معارك كثيرة عاشها على صدر بلاده منذ بزوغه الأول، تسلّقتها والدم ينزف من كل مساماته، تجاوزها والأشلاء على كل مفترق من طفولته وشبابه الأول، لم تكن حربه وحده، لكنه كان أكثر اندفاعاً في البحث عن المعنى، ذلك الذي دفعه صبيّاً في متاهات طويلة لم يخرج منها حتى ذلك اليوم، لا يأسف أبداً على تلك المتاهات ولا منها أيضاً، لقد وقع ما لم يكن في الحسبان، هذه الحالة التي تسيطر عليه الآن خارج حساباته كلها، لم يكن يتخيل يوماً أسود بهذا القدر، ولم يعد لهذا الوقوف الذي يشعر معه وكأنه لم يخرج من صلب مراحلهِ الفريدة. صبي في العاشرة من عمره يحمل جثة أمه، يواربها التراب، يعود بخطوات هادئة؛ فيأخذ والده إلى قبر بعيد عن ذلك الذي ملأ به أمه، كان والده مليئاً بالحياة، ينتزع كل شيء برصانة لكنه يعيشها بفرح طفولي. عندما شدّه من أسنانه القذرة بعد يوم عاصف طافح بالدم، لم يبكيه، شاهده من ثقب خشبي والرصاصة تسكن رأسه، لم يئن، أمه التي فقدت وعيها لحظة العودة إلى المنزل والموت في كل مكان لم تبكيه أيضاً، خرج إليها أثناء هذيانها المتصاعد، حمل رأسها بين يديه حتى انتزعها الموت، لقد شاهد القتلة

يرقصون في واحة منزلهم، لم يفعل شيئاً، تجمّد حتى غادروا المكان، كان قد نسي هذا كله، تراوده بعض الكوابيس لكنها لا تتعلق بدم أبيه، لا تخالطها شهقات أمه، يرى أجيالاً عديدة مليئة بالموت، تزاوره معارك شرسة، يتحول رأسه إلى ساحة حرب، لكنه يعود من نومه كأن شيئاً لم يكن، طوال سنوات لم تغيّر الظروف، كان يشعر بأنه مختلف وأن القوة التي منحها إياه هذه التجارب لا يمكن أن تُهزم في أي ظرف، الآن يكسوه بهوت من نوع آخر، تُعيد الذاكرة كل تلك الأحداث أمامه دفعة واحدة، يشعر بالحاجة للبكاء وهذه هي المرة الأولى في حياته يراوده هذا الشعور، كأنه يتعرّف لأول مرة على إنسانه المنسي، ومع هذا لا يقدر، لا تسعفه محاولاته الجادة، عندما ربتت على كتفه أول مرة صُعبق، كأن قشعريرة البشرية كلها سرت في روحه، تأملها طويلاً، لم يقل شيئاً، كانت عيناها تهرب من الحدقات وتعانق في داخله أشياء مفقودة، أشياء تقفز إلى سطح روحه وكأنها لم تكن في فطرته الطبيعية، عاشا بعد ذلك في الفردوس، حُلق من جديد، أيام معطرة كأنها من تقويم الجنة، أشهر تأخذه من عبق إلى آخر، سنوات من الضوء اكتنفتها، ظلّت روحه تحلّق في البعيد، حيث المعنى

الذي عاش سنوات الدم باحثاً عنه، وفي غمرة هذا اغتالته
الحقيقة، وقعت على بهجته الأولى؛ فضاع في المعنى الآخر
دون رحمة.

زوجتي العزيزة:

تتزاحم في رأسي صور عدة، لا أقدر على اقتناء واحدة منها، واحدة فقط تبقىني متصلاً بذلك المفقود مني، المسلوب من ذاكرتي، كلها مليئة بالأشياء التي لم تعد حولي، أنظر إليها راجياً التوقف عند لحظة ما؛ فتذهب لتأتي الأخرى أكثر سرعة، لم أعد أعرف كيف كانت طفولتي، الآن أدركت هذا، أحاول التشبث بذكرى معينة ولا أقدر، كان لنا طفولة وذكريات شباب، ومسيرات نضال، كان لنا الحب والدفء العائلي، والخيوط المربوطة بالأجواء اللطيفة، الآن لا شيء، أحاول والغصة في قلبي أن أسترجعك كاملة فلا أستطيع، أول ليلة كنا بها جوار النجوم نطارد لمعانها، ضحكاتنا التي طغت على أي فصل آخر، الرقصة المنعشة وأنت تتمايلين على يدي بخجل طفولي مدهش، حبات العرق الملتصقة بروحي وهي تخرج من قلبك شديد الخفقان، هذا كله لم أعد قادراً على الإمساك به، أحاول ولا أقدر، تأتيني صفعات من كل جهة، أسمع الصرخات في أعماقي تناجي نفسها، كأنها تبحث عن أنيس من نفس الفصيلة، وأنا أشعر بالضياع،

أتمسك بما تبقى من خيالي، من ذاكرتي التالفة، وكل يوم تتقلص هذه الحقوق.

أحاديث الجنود تأتي بين الحين والآخر، أفصلها بدقة، ماذا حدث، كيف حدث، أخلق من تفاصيلها الخاصة جداً جسوراً تصلني بك وببلادي، فلا أجد إلا العويل، عويل في رأسي، في قلبي، البلاد كأنها لم تخرج من مآتمها الأهوج، ماذا أفعل، كيف أكتب إليك يا عزيزتي، ممنوع حتى من الحديث، تأخذني أيديهم إلى المذبحة، لا يطالبونني بالحديث، يغرسون خبثهم في دمي؛ ثم يذهبون. في ما مضى كنت مجبراً على الكلام، أقول ما لا أعرفه، أسرد تفاصيل لا علاقة لي بها، أتحدث بما يريدون سماعه، هل فعلت كذا؟ أقول نعم، هل حضرت على كذا؟ نعم، هل كتبت كذا؟ نعم، وحتى لا أفقد قدرتي على الكلام أسرد حكايات مرتجلة أمام دهشتهم السوداء، أفعل ذلك يا عزيزتي حتى أحصل على فاصل محدود من العذاب، ثم أعود إلى زناتي، أعدُّ لكماتهم بحرص شديد، وقعها، زاويتها، هيئتها، سرعتها، تأثيرها، كل واحدة على حدة، لماذا أفعل هذا، لا أعرف، لكنني أريد أن أحافظ على

ما تبقى مني، أن أمرّن ذاكرتي وعقلي، كم مرة رأيتك في الظلام، كم مرة سمعت صوتك، آلاف المرات، تأتين ومعك الأولاد، والدمع موزّع على أعينكم جميعاً، أطلبكم بالاقتراب، بالابتعاد، أضرب الجدران، أتملّص من رأسي وأنا أرفسه بكل ما لديّ من قوة، فأرتعش، ترتعش حياتي كلها، دفعة واحدة، أجدني مفروشاً على الأرض ولا أقدر على المواصلة، لا أقوى على الوقوف، لكنني ما زلت أفكر، الأصوات صاخبة في رأسي، السيارات، الهراوات، الاستجوابات، الصيحات، أشباح لا تفارقني، وبين هذا كله يطلُّ ضعفك عليّ، تطلين مهزومة، فأنهار مرة أخرى. كم مرة ناجيت الموت، آلاف المرات، لم أكن أتصور بأنني سأهزم وأنا في ذروة تطلعاتي، لكنني هُزمت، دون أن أمنح حق المقاومة، لماذا أقاوم إذاً، بمّ أقاوم وأنا في هذه الزاوية القذرة أتخبط بجنون أعمى؟ أنا لا أعرف شيئاً يا عزيزتي، حتى أنني صرت لا أحب أن أعرف، لا رغبة لديّ بالمقاومة، كل مرة يريدون أن أقول نعم، أقولها دون تردد، يريدون لا، أقولها دون تردد. أتفقد صوتي فأجده ميتاً، ماذا بقي لكم مني، لا شيء، لا أريد أن تأملوا بعودة سعيدة، قد أخرج من هنا لكنني لن أعود، سأحمل على رماد هذه

السنوات كجثة محروقة، ولا مكان لهذا الرماد إلا الرياح،
وهذا يعفني من عذابات أخرى بين يديكم.

زوجتي، حبيبتي، عزيزتي:

شاخصة هي روحي، أشعر بتحجّر لا يُفسّر، كيف يمكن أن تعمل الروح في ظل هذه الوحشية المفرطة، جسدي لا يعمل، ينزف دماً يابساً، ماذا عن بلادنا، أتمنى لو رأيتها مرة أخرى، يحز في نفسي أن أغادر الحياة قبل أن ألقى نظرة واحدة على بلادي: ماذا أنجبت، كم سنة مرت وأنا هنا، كم حادثة سال منها الدم دون أن أكتب عنها، رافضاً لغة العنف ومناهضاً قوى الاستبداد، هل مازال الشعب يصرخ ويغضب ويخرج في وجه الطغاة، هل مازال الأصدقاء يترددون على منزلنا، تلك الزاوية المغروسة بالحب هل لا تزال عامرة بالدفء كما كانت؟ أستدعي الكثير في حبوي، أتمزق وأنا أجر نفسي في هذا الظلام، لكن أكثر ما أعانيه هو الضجيج الذي يقيم في رأسي، كنت سأستريح بين يديك، كان بإمكانك تدليك جبيني بمحبتك، لكنك لست هنا، لا أحد هنا، فقط أصوات في جمجمتي، وصيحات أخرى تتراعى من غرف مجاورة، لا أعرف من جوارري، كلما احتفظت بصوت أحدهم، غيروه وجاءوا بأخر مختلف، كأن صرخات البلاد مسجونة

هنا، تقيم في رأسي، تحاذيني من خلف الجدار السميك، كل فترة تأتي ضحية جديدة، لا أعرف أين تذهب الأولى، لكنها لن تعود أبداً، لا إلى ذاتها ولا طبيعتها الإنسانية، من يُجرُّ إلى هنا لا يعود أبداً، حتى الأبد. قبل أيام سمعت أحدهم يغني لحناً حزيناً وشجياً، كان يتنقل بين الأغاني والدمع يكسو صوته، يشرع بالعويل، لا يتوقف، تأتيني صفعات يديه وهي تموي على وجهه، يصفع نفسه بضراوة مخيفة، ثم يهدأ قليلاً، يركل الباب السميك، تصلني ذبذبات خافتة من ركلاته التي تتوقف على أغنية جديدة، لكنه دائماً ما كان يرّد:

”ما عادناش جمّال، ألا شدّ الجمال ما عادناش جمّال، ألا من باطل السُّخري وجور الأحمال“⁽¹⁾.

كيف يفعل بهذه الكلمات يا عزيزتي، تخرج منه والحرقه عالقة في كل حرف، يردد البيت ألف مرة، أسمع آهات أخرى تأتي من زنانات مجاورة، تتصاعد بقهر يجثم على حبالها، ينتقل بعد الألف مرة بطريقة أشد وجعاً: ”ألا سيرى دلا تمّهال، ألا يا قافلة سيرى دلا تمّهال، ألا خلاص

أغنية من التراث اليمني.

أنا تعبان، تعبان والسفر طال“.

يتوقف هنا فيبكي، نبكي جميعنا، أشعر بدمعاهم تسيل في قلبي، لا أحد هنا يضمد أحداً، نبكي دون توقف، نتنفس بهذا الصوت المفجوع، يبدو شاباً، لا أعرف، لم أعد قادراً على التمييز، لكنه يملك صوتاً شجياً، يعود إلينا والدمع في صوته، يضرب رأسه بالجدار، أشعر بهذا، أتحسس رأسي، أبحث عن دم، فأجدني مغشياً بالآه الذي يتوسل ماضيه المسروق ”ألا سيري دلا تمهال، ألا يا قافلة سيري دلا تمهال، ألا خلاص أنا تعبان، تعبان والسفر طال“. يعيدها كثيراً، يوزع تبعه على حلوقنا، فنبكي نيابة عن لحظاته القليلة المنشغلة بهذا الاستحضار الصارخ، لا يتوقف، لا نريده أن يتوقف، يكرر الأبيات الأولى، زفير روحه يخرج من الأحشاء: ”يا اهل الهوى يا ليتنا معاكم، واشلّ لي من زادكم وماكم“، يكررها ألف مرة، قد لا تصدقن لكنه يفعلها، نفعها نحن في سرّنا، بعد أيام سنأخذ بهذه التراتيل بشكل دوري، تصل الأصوات خافتة، بعضها يموت في القلب، وقليل منها يتوزع على الرقاق الضيق، وما تبقى يأكله الظلام، تأكله دمعانا،

يتشكّل في جوفنا؛ فيخرج دماً، لماذا يعيد البيت الأخير،
لماذا نموت في الزاد والماء؟ يقفز مجدداً إلى حلوقنا، تتصاعد
الصيحات من كل زاوية، تتحول الآهات إلى عويل، إلى
صراخ مخيف، وهو لا يتوقّف ”ألا في حبّكم صار الجمل
بجمله“، أي جمل هذا الذي أناخ على هذا الوجع، أي
قوة للألم الذي قصم هذا الظهر العتيد، ”ألا يا غارة الله
زادت الظلامه، ألا شاحاسب الظالم يوم القيامة“. الكل
يصرخ مع هذه الخاتمة، الدعاء من كل جهة، تعصرني
المعدة، ألتوي على نفسي، أتقيأ، أبحث عن ماء؛ فلا
أجد، أضرب الباب دون توقّف ولا أسمع إلا رجعاً باكياً
مخنوقاً.

آه يا عزيزتي:

أدمنت صوت صاحبي، لا أخفيك أنني أحاول التواصل معه، أدق على جدار زناتي، يأتيه الصوت، تتحول ضرباتي إلى إيقاع، يخرج من صمته، يغني دون توقف، لا شيء يقطع عنه هذا الاتصال إلا المرات التي يأتي بها السجّان متسلّحاً بالهراوة، يضربه، يركله، تتوزع هذه الركلات على قلبي أيضاً، تتحول عذاباتهم إلى إيقاع دامي، لا يتوقف صاحبي، ليته يتوقف، أشعر بالذنب، لقد أيقظته مرات عدة، بعضها لم يأت أحد، لكنهم يأتون، تنهال عليه الضربات فأتكوم على نفسي، ألعنهم، أشتم بقوة، يسمعون دون مبالاة، لا أحد يعير ضميري أي انتباه، يدركون بأنهم يعاقبونني أيضاً، عندما يصمت كل شيء في المكان أنزوي مع نفسي، ماذا أفعل، لن تصدقين، أسرح برسم صاحبي في خيالي، اتخيله، أشكّله قطعة قطعة، أخلق من صوته ملاكاً واقفاً على الغيوم المتداخلة، ونحن جميعاً نتأمل بهلفة، ثم أتخيله وهو يسير

إلى مشرحة الدم، يؤلني هذا، أحاول أن أخاطبه بضربات متناغمة على الجدار، لكنه لا يفهم، أنا نفسي لا أفهم ماذا أريد، لكنني أحببته جداً، صرت أخاف أن يُنقل، لن أقوى على هذا، ربما الجميع هنا أحبُّوه، لا نعرف بعضاً، فقط في لحظات التشميس ننظر بعضنا، لكننا نعود والأكياس على رؤوسنا، لا نعرف أي غرفة نُقدِّفُ بها، لم أتعرف على أحد هنا، فقط في لحظات الإعدام تُكشف الهويات، الجميع يعرف الضحية حينها، نعود بعد الدم، والدم لا يعود منا، يبقى عالقاً في قلوبنا، ترتعش فرائصنا، أتخيل بعد كل واقعة إعدام بأن القاتل خلف بابي، يراقبني، أهرب بين الزوايا وأنا أتخبط كما لو كنت مسكوناً بالنار، أهرب، تختلط أحشائي فأتقيأ، لا أنام لأيام، وعندما يأتي النوم تزورني أعين الضحايا كأنها تحاكمني، أسمع أنينهم الأخير، تتوغل أصابعهم في معدتي؛ فأخرج من كابوسي والعرق يملاً جسمي، أصرخ بصوت شاحب، أسمع صيحات أخرى، أدق على الجدار، لا صوت يأتي، لا أحد يرد، أعاود بطريقة أخرى ولا شيء يأتي، أحاول الهروب من كابوسي، لكنني لا أقدر، تتوزع أعينهم على ظلام المكان، فأتسمَّر حتى أُجرُّ كحشرة إلى غرفة التعذيب.

عزيرتي:

صاحبي يُجلد كل يوم، صاحب الصوت الجميل،
من يعيدني إليك، إلى أمي، أبي، إليكم جميعاً، يُعلّق على
السياجات، أشعر بأن السيناريو واحد، لكنه يتأخر في
العودة، تأتي مجموعة من الجنود، أعرف عددهم من خلال
خطواتهم، يجزّونه، لم يعد يصرخ، طاله الصمت مثلنا لكنه
لا يعود بسرعة، تتأخر عودته، وأبقى أنا في عذاباتي أتخيله
والدم في عينيه، على شفتيه، وجهه مليء بالندوب،
جسده ممزق، رأسه يتمايل أمام الصفعات، أشعر بهذا
كله في قلبي، تمنيت مرات عدة لو كنت مكانه، لو أبقوه
هنا، صوته لا يعود كما هو، يزداد ضعفه، ويزداد عويلنا،
كنت أخاف أن يُسلبوه حنجرتهم، لا يمكن أن يردعهم
أحد، تغيظهم أي حالة يستقر عليها السجين، حتى وإن
كان العذاب، سيتوقفون عن جلده طالما هذا لا يعجبه،
كنت أتلمّس صوته بحرص شديد، أنشد معه «جمّال»
تأتي دائماً، نُختلق أبياتاً مختلفة، ونبكي جميعاً، نشتاق إلى
ذواتنا، نفتش عن جمالنا التي ضاعت مع حملاتها، نتقصّد

حنينا الحائف، نجتمع في غيمة واحدة وكل واحد منا يوزع قبلاته على من يحب، أقبلك، بدمع مالح، بدم ملتهب، أقبل أولادي والارتعاشات في جوارحي، لا أستكين، رهبة خبيثة تقف في عيني، لا أعرف هل ألوم نفسي، أم بلادي، أم السجان، أم هذه الجدران المطلخة بالموت؟ كلنا ضحايا، نحن ضحايا، البلاد ضحية، السجان ضحية، الموت ضحية هذه النهايات التي لا تحترمه، لا تحترم وصوله قبل أن نعيش الحياة المستحقة، من نحاسب إذاً يا عزيزتي، من نطالبه بإنصافنا، عند من نجد الأمان، أحياناً نفقد إيماننا، لا أخفيك، يتصاعد سخطنا من كل شيء، هل الله يراقب هذا كله بصمت، هل سيمد يده وينتشلنا من هذا الجحيم، هل هناك جحيم أكثر من هذا، تأتينا هذه الأسئلة المخيفة ونحن في ذروة الألم، نرجو الله يداً تسلبنا الحياة، يداً تعيدنا سيرتنا الأولى، لا نريد انتقاماً من أحد، نريد فقط نهاية لهذا كله، أن نقف من جديد وكل شيء في طي النسيان، أن نعود إليه، نطلبه الموت، الحياة، أي شيء آخر يلغي هذه العذابات الدامية، نتساءل في كثير من الأحيان: لماذا نحن بهذا الضعف، لماذا هؤلاء بهذا الخبث، ما الذي يدفعهم لهذا الإفراط في الوحشية، لا نجد

أي شيء يفسّر حتى جزئيات بسيطة؛ فنشعر بالسخط،
نقابل الله بغضب ثم نبكي كثيراً، نتحسّر على تجاوزاتنا،
نطلب من الله المغفرة، وما أن نهدأ بالتوبة حتى تعود
الوحوش من جديد، تدهس على قلوبنا، ونعاود المناجاة
والرجاء والتساؤلات الخفية.

زوجتي العزيزة:

أنا حزين، الدم في حلقي، أهذي منذ أيام، أضرب رأسي آلاف المرات، أقضم ما تبقى من لحم أظفري، أريد أن أبكي فقط، لا أقدر، السواد جاثم على صدري، الموت لا يأتي، كل شيء يموت في أعماقي إلا هذا الشعور اللعين، تارة أطمئن بأنني فقدته وصرت لا مبالياً ولم يعد يلزمني الشعور بالألم والفقد، لكنه يعود بقوة في اللحظات الأكثر ضراوة. آه يا زوجتي، أريدك جوارى الآن، أنا وحيد تتوغل الوحدة في مفاصلي، في أحشائي، تفترش على حنجرتي، تطعن قلبي، تكسّر روحي، لا أنين، صراخ وعويل وآهات مليئة بالأشلاء، صاحبي قتلوه أمام عيني، رأيتهم يجزّونه، أخرجونا دفعة واحدة، أبعادوا عنا الأكياس التي تحمل رؤوسنا، فجأة، رأيتُه شاباً في الثلاثين من عمره، نحياً أسمر، عيناه غائرة لا تهاب شيئاً، يقف على بقعة الإعدام، لم أعرفه، لا أحد يعرف من هو، مجاميع من الجنود حوله، كل واحد يشمّر عن ساعده ودم البلاد يتقطر من أصابعه، نحن خلفهم نشاهد، من هذا، لا نعلم، قرأ متحذلق

لعين هويته، أتبع ذلك بالروتين الممل والمليء بالاتهامات الكاذبة، يكفي أن نسمع هذا فنذكر بأن الضحية بطل من طينة العظام - عميل، مخبر، مرتزق، خائن وعار على البلاد. هذه مصطلحاتهم، كان الشاب واقفاً كجبل، رأسه سامق، الغيوم متجمدة سوداء، تنظر مثلنا، فجأة سمعناه يغني «جَمَّال والحِلِّ تاجر، ألا يا ليتني جَمَّال والحِلِّ تاجر». هزَّ جوارحنا، تقافزنا من أماكننا، كانت الأسلحة موجهة نحونا، كان بيتسم، يدندن دون توقُّف، نحاول الوصول إليه، لا نقدر، الأسلحة على رقابنا، في قلوبنا، كنت أصيح «أنا الإيقاع، الملعون من تسبَّب بعداباتك، اقتلوني أنا»، وهو يدندن وبيتسم، لا يتوقَّف، عويل زاحف حولي، مَأتم يقام على رأسي، وهو يدندن، بيتسم، ينظر إلينا والزهو يملأ وجهه، من هذا الملاك؟ الغيمة لم تكن تحته، كانت جواره، تحفُّه بالحب، وكنا بالعويل نداريه، نعائقه، نقبِّل صوته، لم يتحرك، القتلة حوله ينتظرون إذن التنفيذ، وصاحبي واقف كالجبل، صاحبي، خليل ضوئي، أنيس ظلِّي، شقيق حنجرتي، حبيب حنيني، ذاكرة فؤادي، مصدر سعادتي، إلهام ثباتي، يقف كالنسر لا يبالي، يدندن، يخرج صوته شامخاً، كأنه يعانق الأنبياء: «ألا وداعة الله ومع السلامة»،

زوجتي العزيزة:

أكتب هذه الرسالة وأنا على مقربة جداً من منزلنا،
ينتابني خوف، تسري في جسدي رعشات لا تتوقف،
متكؤم على نفسي وأنا أشاهدك مع الأولاد تعيشون حياة
جميلة، ألمح أحمد وسارة وأيلول وهم حولك يتحدثون
والبسمة مرسومة على محيَّاهم، لم تخني الذاكرة هذه المرة،
فقدتها في أكثر من موقف، تعرضت لصعقات كهربائية
حتى تهدأ اضطراباتي ويتزن ذهني، ولم أكن بكامل الوعي
مثلما الآن، لقد تعرفت عليكم جميعاً، الأصوات التي تترامى
بعيداً تلتقطها مسامعي بدقة عالية، المنزل هادئ ومستقر،
محاط بالأشجار الطويلة والدفء الأسري، كم أبهجني
هذه الصور التي توغلت في أعماق قلبي، في ما مضى
كنت أحملك في خيالي بصور مختلفة، كان لعاب الحنين
يتحول إلى جمرات وهو يسيل على صدري، أقفز من رقادي
مطارداً أياديكم جميعاً وهي تتوارى خلف سواد الزنانة،
وما أن أعود إلى زاويتي العفنة حتى يمتلئ السجن بنحبي،
تخرج الشهقات من حنجرتي كطفل ضائع في الظلام ولا
أحد يربت على كتفي، لا أحد يقدر على إخراجي من

تلك النوبات التي كانت تتصيدني بين الحين والآخر، الآن أجدك سعيدة، أعرف بأن هذا لا يكفي، قد لا يمنحهم بعض العزاء في اليتيم المعلق على رياح الوهم، لكنه بدا كافياً ومريحاً في الآن ذاته، لهذا تحديداً قررت الذهاب إلى المجهول، لم أعد أنتمي إليكم، للإنسانية جمعاء، لقد سُلبت مني كل حقوقي وإن عدت إليكم بهذه الحالة لن أجلب إلا الخراب ولن تكون لكم هذه الأوقات الهائلة، سأعادر الآن، كنت أريد أيضاً أن أتعرف على الشخص الآخر قبل أن أذهب في حياتي الأخرى... أعرف مدينة قادرة على استيعاب هذه البقايا المرسوم عليها أبشع ما اختلقته البشرية من تنكيل وتمزيق وتقطيع؛ فأنا لست مستعداً للمقامرة بحياة تخصصكم وحدكم وقد خلقتموها بعد أن سُحقت بالغياب الطويل».

الفصل السادس

أمضيت ثلاث ليالٍ وأنا أقرأ الورق المنشور أمامي، لم أنم ساعة واحدة، كنت أعاود قراءة الرسالة أكثر من مرة، أتفحصها والدم يقطر من جوانبها، أتعرف بها على أبي الذي فقدته في طفولتي ولم أجده مرة أخرى بعد إن قالت أمي إنه ذهب في رحلة طويلة وسيعود. كبرنا ونحن ننتظره على عتبات المنزل، نقف على شفرات الانتظار كل يوم، كنت أبرر هذا الغياب لأصدقائي بإجابات أختلقها بالكثير من الأمنيات، سيعود غداً حاملاً الهدايا العجيبة، لم يكن أحد يصدق تلك الافتراضات التي فقدت الثقة بها بعد انتظار طويل، الآن أجده جثة هامدة في مجموعة من الورق التي تبكي سنوات سُرقت منا جميعاً. مصطفى الذي رأيته أول يوم من وصولي هنا أبي، هل يعقل هذا، عندما وقعت الصورة أمام أعينهم كان خائفاً ومشلولاً، وفجأة دخل في موته المعتاد، لم يقل شيئاً، تعرف على نفسه ثم خاف، ارتعشت روحه دفعة واحدة، وبقيتُ على

رأسه أحاول تفسير الحادثة التي جثمت على صدري، كان
أعينه في تلك الليالي مكبوتاً كأن صخرة صماء على قلبه،
يتأملني بصمت، يحاول استرجاع نفسه التي سلخت في
دهاليز السجون، بينما أنا شارد أفتش عن أبي الذي ذهب
في رحلة طويلة ولم يعد.

تختلط أصوات الشارع وأنا في صمت الموتى، أستجدي
قوى تساعدني على الوقوف، أشتّم رطوبة المكان فأشعر
بالغثيان واقف على حلقي، يتصاعد البخار من جسدي
المبلل بالرهبة وأنا أستعيد كل حرف من الورق المبعثر،
صوت مشروخ يطل على قلبي بين الحين والآخر، تتسمّر
عيناي على مشاهد مفروشة أمامي بينما أنا بعيد جداً،
يمر الأطفال وعلى أياديهم أسمال قدرة والبسمة لا تفارق
شفاهم، كان أحدهم يشير إليّ بتحية لطيفة، لم أقدر
على الرد، النافذة التي تحمل وجهي اكتست بلون الموت،
لا تمر دقيقة إلا ورأيت أحدهم مشفقاً عليّ وهو محمّل
بأتعابه، ربما كان الجميع يعرف أمري، أنا وحدي الذي
يجهل كل ما يدور في هذا العالم. أبي طوال هذه السنوات

لم يكن مصطفى، كان شخصاً آخر، يتقيأ الدم كل يوم في زنزانه موحشة، يتخلّص من الحنين وهو يداعب جداراً أصم رشّمت عليه أطيافنا بالسواد، كانت أمي طوال تلك السنوات تعيش في زنزانه أكثر ظلاماً، لم تكن تفتّر عزميتها أمامنا، تتحاشى ذكر أبي ونحن على الوليمة، وما أن يفلت تلميح بعيد من أحدنا حتى نجدها تأخذنا إلى مواضيع أخرى، كنت أشك أنها لا ترغب أن نرتبط بمصير مجهول ذهب مع الرياح، تارة أقول في نفسي ربما لم تحبه بذلك القدر الذي يجعلها تمن كزوجة ثكلى بالوهم، غير أن السنوات الأخيرة التي دفعتني للمجيء إلى هنا وضّحت لنا مدى ذلك الارتباط الخفي الذي ظل يتفرقع على صدرها بصمت قاهر، تداعت حالتها حتى فقدت القدرة على المشي، في اليوم الأول الذي أفصح لنا الطبيب عن ضعف في نبضات قلبها أدركنا الكارثة، حاولنا أن نخفي عنها نتائج الفحوصات وعلّلنا بقاءها في المشفى بالراحة التي تعفيها من متاعب المنزل، لكنها كانت تبكي كل يوم، ينساب الدمع من قلبها وتكاد من حرّقه أن تفقد آخر نبضاته، لم تكن تخفي حاجتها إلى أبي بعد سقوطها في المرض، كان كل أنينها محمّلاً بالحنين إليه، تنهّد آلاف

المرات ونحن بين أيديها، تتأملنا دون توقف، تشاهد في ملاحظنا أبي الذي لم نعد نذكر منه إلا صورة من الراحلين الضائعين في متاهات حياتهم، أمي كانت تعرف بأنه في السجن، لم نخبرنا بالأمر، ظلت سنوات وهي من سجن إلى آخر، تدّعي بأنها في زيارات عائلية مهمة، تعود منهكة جداً، نمسّد قدميها ولحن شجي يخرج من صوتها الحزين، تقول أشعاراً لم نكن نعرف معانيها، ترتلها ويدها على رأس من يدلكّ قدميها، ثم تعود أقوى، تعيش بآمال تأخذها من زيارات متعبة، يعدها أحدهم شفقة بأنه سيبحث عن أبي في مكان ما، تنتظر أياماً، تذهب منتعشة، ثم تعود والخيبة مرسومة على وجهها، حتى وقعت نصف مشلولة، كانت تريد أبي، تتحدث متلعثمة عن حاجتها لأبي، تصرخ حتى تكاد تنفجر مفاصلها، لهذا أخبرتنا شقيقة أبي بالحقيقة، هذه الرحلة الطويلة التي ظنناها في أماكن تهمُّ أبي وحده، أخذت مكانها في السجون، وهذا ما دفعنا للبحث. كان أحمد أخي يعمل سائقاً، استطاع توفير مبلغ كبير من خزنته التي خصصها لزواجه القريب، تخلى عن عمله في سبيل البحث عن أبي، كنا نسأل أصدقاءه بحرص شديد، كان البعض منهم خائفاً من السلطة التي تحشر الموت في

فم أبي، والبعض الآخر حرصت أمي على ألا يفصحوا لنا بالحقيقة، لقد كانت مسكونة بالرهبة، طوال هذه السنوات وهي تعاني هذه العذابات التي تفرّعت على قلبها حتى انكسر، كانت تخاف أن تفقدنا مثل أبي، تخطط أوجاعها وحدها، وما أن تظهر لنا حتى نجدها مشيدة بقوى تلهمنا كل أبجديات الحياة، عندما علم أصدقاء أبي بحالة أمي الصحية وببحثها بشكل علني عن أبي ساعدونا، كانت تحركاتهم محجوبة عن الآخرين، يهمسون لنا بالتفاصيل حتى ونحن في منأى عن الجميع، ثلاثة أعوام ونحن نبحث عن أبي، عن جثته، عن ظلٍ يساعد أمي على الوقوف، كانت كل المحاولات تفشل بحقائق مرعبة، وما أن نسلم بهذه الحقائق حتى نجد أمي مشلولة بجينها وغارقة في عجزها الذي لم نعهده منذ وعينا الحياة؛ فنعيد الكرة، حتى وجدت دليلاً هسّاً بأن أبي مازال على قيد الحياة، شعرت حينها بأني خلقت من جديد، لم أحدث أمي، بعد أيام أخبرت أحمد بهذا الدليل الذي رغم انبعائه من الرماد كان مليئاً بالمخاطر، سلّمني ما تبقى لديه من المال وقال اذهب حالاً إلى المدينة ولا تعد إلا به، كانت المسؤولية الأثقل في حياتي، شعرت بأني حينها مسؤول عن حياة أبي

الذي منحني رقصة واحدة وغادر بعدها في الضباب، عن حنين أمي الذي يلفُّ حباله على قلبها وهي على سرير مبلى بالانتظار. الآن وقد وجدت ظلاً مشوّهاً من أبي لا أعرف ما الذي عليّ فعله. مصطفى اسم خارج عن كل الحسابات، ملامحه لا توحى بأي صلة مربوطة ولو بالقليل من فتات الذاكرة، من أجزاء الصورة التي مُزقت، من تلك الرقصة التي مازلت اشعر بدفئتها يسري في عروقي، كيف لي أن أقابل هذا الشبح الخارج من مقبرة منسية حوّها إلى صفحات وخنقني بجبرها، فرائصي كلها في زوبعة عمياء لا تجد طريقاً يخرجها من ضيقها الذي يصيبني بالدوار، قال أبي كل شيء في هذه الصفحات، لكن هل حقاً مصطفى هو أبي، ذلك الذي كان يتأملني بصمت في غرفة نائية ومليئة بالموتى، لم يحرك يده ولو مرة واحدة، لم يفتش في جيبني وشعري وملامح وجهي، لمحني من بعيد وبقي هارباً داخل نفسه لا يقول شيئاً، دعوت الله كثيراً، كنت بحاجة لدفعة إلهية تخرجني من هذه البقعة التي تجمّدت عليها كل جوارحي، لمسة من الله تعيد حيويتي وتجعلني أهرع إلى أبي الذي وجدته دون روح، إلى نفخة تقتلني من هذا الخوف حتى يراقصني من جديد وأنا بين يديه أقَلِّب له صور

أمي وإخوتي، صوتها الحزين الباكي الذي كانت تغرسه في أعماقنا وهي تحثُّنا على النجاح الذي يليق به. لم أخبر أحمد بالأوراق، حملت نفسي وخرجت مترنحاً، السهر يتطاير من عيني شرراً أحمر في كل مكان، شارع مكفهر، تنواري الشمس خلف سحب سوداء تراقبني والحزن يتدلى منها على كل خطواتي، لم أكن أعرف ما الذي أنا عليه، كنت حائراً من ذاتي التي طالما تاقت لهذا اليوم الذي أكون فيه على يدي أبي، الذي أعيد به استكشافه، كان يتراءى لي في أحلامي والضباب يحيط تقاسيمه، أصحو من منامي وأنا أبكي، ألعن ذاكرتي التي خانت أعز ما حملته وذهبت تبحث عن جماليات هوجاء في الحياة، أريد أبي وأنا بين يديه، أرقص تحت السماء، الأرض تناغم تلك الأقدام التي حملني عليها وطار في الغيم، أبي ذلك الذي قال لي يوماً ستكون ظلي، بوصلة خلودي، الذي خذته وأنا أعيش خائفاً من حقائق يسردها لي أصدقائي في المدرسة وهم يسمونه مشوَّهاً خائناً، تركنا نتجرَّع الفقر وذهب من أجل حياته، تلك الحقائق التي كنت أخبئها وأنا أناجيه وحيداً خوفاً من دمع أمي، أسرد له تلك الطعنات التي تُغرس في غيابه من أصدقائي وحاجتي للوقوف معاً حتى لحظة

واحدة، كي أثبت لهم فقط بأنك أبي، بأنك لم تتركني، لم تترك أمي، لم تذهب من أجل حياتك. لم يكن يمر يوم دون أن أعانقه بهذه المناجاة الطويلة.

الفصل السابع

كنت أعرف المكتبة التي يملكها أيوب، لم أقدر على الذهاب وحيداً إلى أبي، مازلت بحاجة إلى قوة تقطع قناع مصطفى عن تلك الملامح التي تلاشت من ذاكرتي وعشت أطاردها يوماً بعد آخر، حتى الصورة لم تكن تسعفني، كانت لأبي تشكيلة مختلفة في أعماقي، صورة أخرى تكوّنت منذ خروجي الأول إلى الحياة، فجأة لم يعد شيء، اهتزت داخلي تلك الرقصة وعشت في مأساة مبعداً عن صوته وأصابه وحضنه الكبير، وجدت أيوب وحيداً، يجلس خلف طاولة قديمة، الكتب المعتّقة متوزعة على جوانب مكتبته الصغيرة، يعمل في جمع الكتب وبيعها، رجل مثقف، عاش عمراً طويلاً في حقول السياسة حتى ذبل، قفز من مكانه، رحب بي بعطف صادق ظاهر في عينيه، مرت دقائق ونحن في صمت، كنت أرفع رأسي لأختلس نظرة أحاول من خلالها الغوص في صمته، وكان مطأطئاً رأسه لا يتحرك، هذه هي المرة الأولى التي أزوره في مكانه، كان قد أخبرني عنه قبل فترة وطلب مني الزيارة.

- والدك رجل حقيقي، أقصد مصطفى، هل قرأت الصفحات؟

- أكثر من مرة، لكنني مازلت أفقد أبي.

- أنت لا تعرف كل شيء يا ولدي.

- لكنه لم يعد، وضعنا في سجن أبدي وذهب، هل تريد مني أن أتقبل الواقع بهذه السهولة، أن يذهب أبي وأنا طفل بشكل نعرفه جميعاً وروحه لم تفارق حياتنا، ونعود إلى مصطفى الذي يعيش هذه الحياة البائسة.

- أنت لا تعرف كل شيء يا ولدي، ويجب ألا تعرف، هناك أمور في الحياة يُفضَّل أن نتجاوزها ونعيش وفق

معطيات ملموسة بعيداً عن الحسابات المعقّدة.

- حساباتك فلسفية يا أستاذ أيوب، نحن نتحدث عن
أب وزوج ورجل صالح.

- ما وجدته هنا هو أبوك، بشحمه ولحمه، مصطفى
الذي رأيته في ذلك اليوم والذي اعتنيت به في المستشفى
هو نفسه أبوك، يُفضّل أن تعود إلى غرفتك الآن حتى
تستعيد قواك ونفكر معاً بالذي علينا عمله.

- ليتني أقدر على ذلك، منذ جئت آخر مرة وأنا دون
نوم.

- ماذا قررت إذاً؟

- لا أعرف

- هل وجدت أباك في الصفحات؟

- وجدت الدم

- لقد كانت حياته، عاشها بكل عنفوان، هذا ثمن
المواقف العظيمة يا ولدي.

- لماذا لم يعد إذًا؟

- كان عليك أن تعيد قراءة الرسائل التي كتبها إلى أمك،
لقد كنت جواره في كل ليلة وهو يسرد خلاصة تلك
السنوات التي عاشها في الزنانة، كان يجلس خلف هذه
الطاولة طيلة الليل، لم أكن أتركه وحيداً، اسمع كل حرف
من كتاباته، لم يكن قادراً على الكتابة دون أن يتفوّه، ربما
اعتاد ذلك في السجن، قال لي إنه كان يرددها في زناناته
بهذا الشكل، لم يكن يملك ورقة أو قلماً، تعتمل الرسالة في
ذهنه دون توقف، حتى وجد الفرصة لإخراجها.

- متى كتبها؟

- بعد عام من هروبه.

- هل هرب؟

- لقد هربنا جميعاً.

- كيف؟

- أثناء ما كنا نتشمس في الساحة، حدث انفجار على
جهة من السور، ثم تلا ذلك معركة قوية في جهات مختلفة،
لقد كانت خطة محكمة لإخراج أحدهم، عرفنا بعدها بأن
الشخص كان جزءاً من السلطة.

- لم يطاردوكم، لم يبحثوا عنكم؟

- انشغلوا بمعارك أكبر، وهذا ساعدنا كثيراً.

- لم يقل بأن لديه أصدقاء في السجن؟

- صحيح، تعرفت عليه أثناء هروبنا.

- والصورة؟

- كان لديه زميل آخر هنا، يملك صوراً كثيرة.

- لماذا غير اسمه؟

. حياته كلها تغيرت.

- لماذا إذاً لم يخبر أمي، إنها تموت الآن، كان عليه أن
يعود، أن يصلها بأي طريقة، هل كان يخشى أن يأخذه
من جديد، لا بأس بهذا، كان عليه أن يخبرها وهو هنا قبل

أن يأكل روحها الذبول وتتمزق قهراً كل هذه السنوات.

- لم يكن يريد أن يعكّر صفو حياتها الجديدة.

- أي حياة جديدة؟

- لم ينسها يوماً واحداً.

- وهل كان يعتقد بأنها نستة؟

- هل تعرف بأنه حاول الانتحار أكثر من مرة؟

- لم يكتب هذا.

- لو كنت بمكانه هل ستعود؟

- قال إنه لم يعد قوياً، يشعر بالهزيمة، لا يريد أن يلقي هذا الثقل على عاتقنا، عاد من جوار المنزل خوفاً من أن نلاقيه بهذه الهيئة.

- هذا سبب رئيسي، لقد كان صادقاً، لكنه حاول الانتحار عندما وجد الفرصة.

- لماذا؟

- لدوافع منطقية.
- هل تجد الانتحار فعلاً منطقياً؟
- من يُقدم عليه يعتقد ذلك.
- هذه المدينة كفيّلة بكل شيء.
- صحيح، لكنها ليست أثقل من فقدان ظلّك في الحياة.
- لم أفهم؟
- أمك.
- أمي لم تمت.
- لا ألومها على ذلك، ولا يجب عليك أن تلومها، لكنه لم يتحمّل الأمر، كان وقع الخبر ثقيلاً عليه، كرسالة في القلب.
- لم أفهم أيضاً.

انسلخ أيوب عن كرسية وظل دقائق يحوم حولي دون

توقف، يتسمر لحظة أمامي، ثم يتحرك بطريقة دائرية حتى وجدته يفتش في كتاب كان محشوراً بعيداً عنه، أخرج منه ورقة ثم مدها إليّ.

- عليك أن تقرأ هذا يا ولدي، أردت أن أخفيها عنك حتى لا تلوم أمك، لكنني وجدتك عاتباً بشدة على أبيك.

«فكرت كثيراً قبل كتابة هذه الرسالة، لا أعرف هل ستصلك يوماً ما، أم ستبقى في ذاكرتي كبقية الأشياء التي أخذت حيناً كبيراً مغلقاً حتى الأبد، عندما وصلني الخبر كنت حطاماً، هل هذا التعبير مناسب؟ لا أعرف، لكنني منذ دخلت هنا وأنا أتحوّل في كل ثانية إلى حيوان أليف، لم أعد أعبأ بشيء في هذا الوجود إلا حياتك وحياة أولادنا، أخبرني السجان اللعين بأنك صرت زوجاً لرجل آخر، يا للهول من وقع الخبر على قلبي، لم أعرف ماذا حدث بعدها، فقدت اتزاني وسط قهقهات حيوانية ملعونة، كنت ألمح في أعينهم شيئاً منك، وأسأل في غيوبتي كيف لك أن تختارين آخر وأنا مازلت على قيد الحياة، كيف استطاع

قلبك أن يخرجني من أعماقه وأنا الذي حاربت كل هذا الوجود من أجلك وحدك، كنت ألتوي على نفسي في تلك الغرفة المنبوذة وهم حولي يرقصون عراة من ضمائرهم وإنسانيتهم، لم يخامرني شك بأنك صرتِ زوجة لرجل آخر، كانت هذه المرة الأولى التي أخون فيها ثقتي بك وإيمانك بي، شعرت بأن الوهن الذي استباح دمي قد تمكّن منك، ولم تعد هناك أية فرصة للقاء جديد، هل عذرتك؟ نعم آلاف المرات، وفي كل مرة كانت تخنقني أنايتي بك وأستدعي بها غيرة البدايات ونزوات الحب الحقيقي الذي عاش لك سداً منيعاً حتى من نسيمات الطبيعة. مرت أيام وأنا أحاول تقبُّل هذا الواقع، بجهد كبير أداري قلق ذاكرتي التي لم تحمل غيرك في الوجود، لكنني لم أستطع، افتعلت الكثير من المشاكل ولم أكن أهدأ إلا بضربات تفقدني وعيي، وما أن أستعيد هذا الوعي الملعون حتى أجدني محاصراً بك وآلاف الرجال حولك لا أعرف منهم غريباً واحداً أنال منه ولو على أطراف طيفه، تحول كل أصدقائي إلى خونة قذرين، كل من تربطني بهم صلة صرت أمقتهم واللحظة التي جمعتني بهم، كأني قذفت بهذا النبا الملعون في ززانة أبدية أشد ظلاماً من هذه التي ملّت عويلي، لم

أسأل نفسي عن أسباب هذا الفعل منك، لقد أيقنت منذ مدة طويلة بأنني لم أعد صالحاً لأي شيء، وكان جُلُّ تفكيري يدور في فلك الذكريات التي عشناها معاً والتي كنت بها أستعيد حيويتي وأقاوم هذا البؤس المنتور على ما تبقى من إنسانيتي، كنت أعرف بأنني أيضاً لم أعد ذلك الرجل الذي سيمنحك الدفء المنشود، ولم تعد حياتي ذات قيمة يسير عليها أولادي بعدي، لكن هل تعرفين أين أموت الآن، هل لك أخبار علَّها تمنحني قليلاً من الشفقة التي طالما هربت منها والآن أجدي أطاردها بلهفة الخلاص من كل شيء، لن تصلك هذه الرسالة، كل شيء حملته في ذاتي استقمت به وأنت تقفين على الطرف الآخر وحولك الأولاد يحملون طيفاً هسّاً لن يكون من نصيبهم حتى الأبد، أفتقدك بمرارة، أريد أن أناديك من جديد، حتى هذه الجزئية سُلبت مني، لا أملك حقاً من دمي وذكريات حياتي وذلك العرق الذي قامت على أكتافه حياتنا، أخذوا كل شيء من حياتي، حتى الوهم وأنس الجنون سلبوني إياه، يا لحقارة هذا الوجود، هذه الحياة التي لم تمل من اضطهاد إنسان عاشها في سبيل كرامتها وقيمتها الأصيلة. لا ألومك، لن أفعل، تارة يتملص مني

هذا العهد، لكنني أعاقب نفسي بطريقتي الخاصة، أحمل جسدي الهزيل وأكسِّره على الجدار، أرسم لوحة الغروب الذي لم ينته، وكل من عرفتهم وأحببتهم مليئة ملامحهم بالدم. كم أود أن أناديك من جديد، مرة واحدة أنطق فيها اسمك، وأنا مدرك دون شك بأنك لي وحدي، أن أخطب طيفك كزوجة أبدية تضمّد جروحي، أن ألمسك والدفء يهبُّ من عينيك على جليد أحمر يملأ ذاكرتي، لكني لا أقدر.

أفكر دون توقف بالسعادة التي تحظين بها وأنا هنا مُلقىً في أسفل الجحيم، ماذا تجدين في وجه رجلك الذي طغى على ذاكرتي واستبد دون رحمة بكل الأشياء التي حاربت ومازلت أحارب من أجلها، كيف تعيشين تحت هذا الكنف وأنا هنا ألعق الدم، أتبع أوهاماً قاتلة، أسير مع حشود من الهراوات التي تنقب في جسدي باحثة عن جلد آخر يئن من وقعها كمعزوفة بائسة، لا أدري، الآن فقط أيقنت بأن ذلك الجمل الذي ظل يحمل صاحبي السجين المقتول قد وقع عليّ بكل حمولته، أشرعتي الممتدة إليك وحدك تحولت إلى أسلاك من الموت، ليتني أنزف عليها

وأنا أنشد لحظة واحدة معك أكون بها بكامل عنفواني
وتكونين أنتِ بكل حبك، لن أعود أنا، ولن تعودين
أنتِ، قدر أُشبق به آلاف المرات وفي المرة الأخيرة ستكون
عينك في الطرف الآخر، لن تحيد عن الوداع الأخير، ولن
تكون إلا معي في الظلمة الأبدية المريعة».

أكملت الرسالة فشعرت بمذاق الموت في فمي، أقلّب
الورقة بصمت، لا أحس بشيء حولي، خائر القوى،
تخامرني آخر لحظة رأيت فيها أمي مقعدة على سرير
الموت وهي تنتظر عودة أبي، ماذا يمكن أن أقول لها الآن،
كيف أخبر أبي بالحقيقة، هل صار أبي حقاً، مصطفى
المسكون بالموت هو نفسه الذي خرجت من صلبه، ذلك
الشريد الحزين الذي لم أسمع حتى نبرات صوته، هو أبي. يا
الله، أيُّ همٍّ كبير يزرع على ظهري، جوارى أيوب، لا يحرك
ساكناً، هو أيضاً لا يعرف الحقيقة، يطلب مني ألا ألوم
أمي، تأكله الحيرة مثلي تماماً، يحاول أن يمد يد المساعدة
لكنه لا يعرف من أين يأتي، لا يعرف هل يشفق على
نفسه، أهله، مدينته، هذه السنوات التي سحقتنا جميعاً

ونحن في مداراتها نتخبَّط دون توقف، يتأملني بصمت، شرر يكاد يخرج من عينيه، نار مكبوتة في حدقاته. أمامنا رياح مجنونة تعصف بكل شيء، أتمنى لو تأخذني من هذا الجمود وتقذفني في جزيرة بعيدة عن الجميع، عن ذاكرتي وسنوات عمري التي عشتها مُطارداً الأوهام من بقعة إلى أخرى، جزيرة أهطل عليها كمولود جديد، أشكل نفسي بهيئة خالية من هذه الندوب، أستند على كينونة مختلفة عن هذه المليئة بالأشلاء.

المح أيوب، يده على ذقنه، شارد في البعيد، عيناه مليئة بالشرر، أفكر ماذا لو كان في بلاد أخرى، لو كان قدره مختلفاً عن كل هذا الذي يحيط به، كيف ستكون حياته، هل سيملاً الشقاء رثيته، هل سيقضي حياته في مدينة ملعونة مثل هذه، مدينة كأنها مقبرة يسير عليها الموتى، لا يطلبون شيئاً، يتقاسمون ظلامهم في منأى عن الحياة، وكل واحد فيهم يتقيأ جثته الخاصة. تجتاح الرياح رفوف المكتبة، تتطاير أوراق قديمة من بعض الزوايا، أيوب لا يتحرَّك، يشبه أبي، كثير منه يطل من هذا الشرود، أريد أن يتحدث، أن يرشدني إلى الطريق، أن يأخذني من يدي كما

فعل أبي، ويقودني إليه، أتوسل بعينين خائفتين، يراقبني
والصمت قابض على فمه، أرتعش، يداي تقبضان على
الورقة بشدة، تتحجّر أصابعي وأنا أحاول فكّها، أشعر
بلهيب دمعي تتخطّفه الرياح من الجهات الأربع، لا أنظر
إلى مكان إلا والدمع يحجبه عني، تتخشّب ذراعي، أريد أن
أخرج من هذه الحالة، أن أقف وأذهب إلى أبي، لا أقدر،
أمسك رأسي بشدة، أيوب يتأملني بصمت، لا يتحرّك،
كأنه مثلي متخشّب، يعتصره الوجد من الأعماق، تُقَطِّع
روحه هذه الكآبة الموحشة والمتوغلة في أعماقي، أبكي
بصوتٍ عالٍ، كأن سكرات الموت تمزّق قلبي، تتراءى لي
أمي ورأسها ذابل، عيناها معدومة الحياة، يبكي معي
أيوب، يمسك يدي، أستحضر أبي، أتذكر ذلك الدفء
الذي سُرق مني فأتقيأ، الدم يخرج من فمي، لا أقدر على
الكلام، يحاول أيوب ملمتي، أسقط بين يديه، ثم يختفي
الضوء دفعة واحدة.

الفصل الثامن

عندما فتحت عيني، كان أيوب جوارى، خرقة مبلّلة على رأسي، الدوار يتملّكني، مازلت أشعر بخواء في روحي وبدني، أتأمله كما فعل أبي في ليلتي الأولى وأنا واقف على رأسه، يتسم بوجهي أيوب وكأنه استبدل ذلك الوجه الذابل بقطعة من الجنة، أحاول الوقوف، يطلب مني التريث، أصر عليه وأنا أمرر يدي على وجهي، أشعر بالبرد، هذه المرة الأولى منذ وصولي المدينة تتحوّل الهبوب الملتهبة إلى قطع من الثلج في جسدي، أبحث عن معطف أبي الذي لم تفرّط به أمي، وظل يحميننا واحداً تلو الآخر من خوف الشتاء وكآبته المفرطة.

إلى أبي.. هكذا نطق، تلاً لوجه أيوب مرة أخرى، عانقني بشدة، لم يتركني حتى امتلأت بهذا العناق وأنا أجمع نفسي لعناق آخر، لتلك الرقصة التي حملني على إيقاعها أبي وفرد جناحيه كملاكٍ طائر، كانت رائحة أيوب مليئة بذلك اليوم، صوته، ملامحه، سعادته المتراقصة في عينيه. أمسك بيدي، أحببت المدينة ونحن نسير معاً، البسمة لا

تفارقني، أعانق المارة حتى أكاد أخترق حيرتهم، لكن لا أحد يبتسم، فقط أنا وأيوب، في الطريق أخبرته بأن أُمي لم تتزوج، وقف أمامي يتأكد، مازالت تنتظره على الباب، قلت له، عانقني مرة أخرى، ثم رقص قائلاً: يا للزوجة العظيمة، يا للأم المقدّسة. فك خطاه، وأنا مثله نطوي مسافات مليئة بالموت والجثث والدماء والصيحات الغائرة.

وصلنا بوابة المستشفى على وقع غروب الشمس التي تغادر بحجل، تريد أن تبقى، أن تشهد هذه العودة المرتقبة، التئام الروح بالجسد، عناق الفردوس المفقود، تزامنها الطبيعة بظلمة كئيبة وهي تطل مسرعة من خلف السحب، بينما نحن لا نعبأ، هذا فجرنا، صباحنا الذي يُخلق من جديد، يدي مليئة بعرق المحبة الذي يتقطر من يد أيوب، ندخل مهرولين، رياح فضولية تسابقنا، سكون على الممر الوحيد، كأنها مهابة خجولة من هذا القدر الذي أوغل في ضرباته، هذا الغياب الذي تحولت سنواته إلى خناجر في الخاصرة، لا نلمح أحداً.

أريد أن أعانق أبي، أن أفرد جناحي أمامه، أخبئ رأسه النحيل في حضني، لا أريد أن يبكي مرة أخرى، أن يعود إلى ذكرى زنارته من جديد، عناق واحد يفصلني عن أمنيات عمّرتها سنوات في جوارحي، والآن على عتبة واحدة من هذا العناق، أمسكت أيوب بقوة، تأملني بطرف عينه اليمنى «هذا يوم للخلود، كن مبتهجاً يا ولدي»، هزرت رأسي، وما أن أرخى يده حتى تركت قدمي للنسمات المتعجلة، خلفي أيوب يسابق ظلّي، لا يريد أن يسبق اللهفة في قلبي. كنت أعرف الغرفة جيداً، لمحتها فوجدت على بابها جمعاً كبيراً من الناس، كأنهم جاؤوا لهذا العناق الكبير، هذه العودة التي تنشق من صدرها الحياة فرحة وسعيدة، ترامت خطواتي إلى آذانهم، جميعهم التفتوا إليّ بأعين ذاهلة. فُتحت أمامي الطريق فوجدت أبي مضرجاً بالدماء.

انتحر أبي، مزق ما تبقى له من الحياة، حاولت أن أستعيده من جديد، رجوت الله معجزة تعيد نبضه حتى يوماً واحداً من أجل أمي، من أجل تلك الكذبة التي اخترقت قلبه سنوات حتى قضت عليه، من أجل ذلك الانتظار الذي تجرّعته أمي بآمال عظيمة، ذلك الصبر الذي كابدته وهي ترعانا من أجل يوم واحد نكون فيه مع أبي، من أجل بلاده التي تمنى أن ينظر إليها من جديد، بلاده التي منحها نفساً كريمة وروحاً عظيمة، ومنحته حياة شقية وموتاً بائساً. كانت عيناه غائرتين، جسده بارداً كالثلج، ملامحه شاحبة مفروشة بالموت، تمنيت لو سمعت صوته بعد كل هذه السنوات، لو حملت إلى أمي شيئاً على قيد الحياة منه حتى تستريح، لكن لا شيء، موت فقط، جئت محملاً بالموت وسأعود محملاً به، هل سأعود أنا، بعضي الذي مات قبل خمسة عشر عاماً وبعضي الآخر الذي مات هنا؟